الحضارة المصرية
في العصور القديمة

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01008 7199
DT
61

ASU LIBRARY

الحضارة المصرية فى العصور القديمة

وضع

عبد الحميد سالم

بمصلحة خفر السواحل ومصائد الاسماك

الطبعـــة الأولى

١٩٣٤

الثمن ٧ صاغ

DT
61
S3
1934

مطبعة صلاح الدين بالأسكندرية

الحضارة المصرية فى العصور القديمة

هدية الى الاستاذ
المدرس
عبد الحميد
٢٠/١٢/٩٣٤

DT
61
S3
1934

وضع

عبد الحميد السالم

بمصلحة خفر السواحل ومصائد الاسماك

الطبعـة الأولى

١٩٣٤

الثمن ٧ صاغ

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية

932
Sa 33e
oclc
65989161
٩٣٢
س٤٣خ

21978

المؤلف

B12436872
13797153

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لست أزكّى نفسى ، إذا قلت إن لى - كما لكل إنسان شاعر بحيويته - رسالة فى الحياة . وأعتقد أن خير رسالة تؤدّى ، هى التى تبعث فى النفوس روح المجد ، وتوحى اليها بسيّال حب السيادة والرغبة فيها والعمل عليها .

وسيراً على هذا المبدأ ، قد بدأت فى أداء رسالتى بوضع كتابى السابق « رب الحرب أو نابليون الأول » ، لأنى أعتقد أن نابليون هو ألمع نجم انبزغ فى التاريخ الحديث ، وجمع بين الجندية فى أجل معانيها ، والسياسة فى أبعد مراميها .

وعوّلت على الكتابة فى سِيَر عظماء الرجال ، وأعلنت ذلك لقرائى فى كتابى الأول ، لاعتقادى أن الحديث عن عظماء الرجال يولد فى النفس عظمة الرجولة .

وتمشياً مع خطتى التى أشرت إليها ، دبجت سفراً يتضمن حياة « نلسون » أمير البحر الانجليزى ، الذى أكسب انجلترا السيادة المطلقة على مياه العالم ، والذى جمع من صفات

الجرأة والاقدام والشعور بالواجب ، ماجعـــله أسوة حسنة لكل نفس تنشد المثل العليا .

إلا أننى كمصرى ، يشعر بمدى الروح الجديدة التى ابتدأت تتغلغل فى أنحـــاء البلاد ، وتوحى إلى كل عقل والى كل قلب ، العمل لانهاض مصر والسمو بهـا الى مستواها الماضى ، رأيت أن أؤجل نشر كتابى عن « نلسون » وأن أخرج لمواطنى كتابا شـــاملا لتاريخ مدنية أجدادهم القدامى ، ليحيطوا بما فيه من مفاخر ، ومن أخطاء ، فيستخلصون العبر من الأخطـاء الماضيـة ، ويستمدون وحى البطولة من تراث أجدادهم التليد ، فالأمم التى تجهل ماضيها ، لاتأمن العثرات فى مستقبلها .

وللمصريين الحق فى أن يفتخروا بأجدادهم ، الذين تناولوا مختلف نواحى الحيـــاة ، ولبسوا شتى صورها ، وكانوا خير قدوة تحتـــذى ، من مئات الأجيـــال إلى اليوم ، فازدهرت وأينعت شجـــرة المعرفة فى عهـــودهم وتنـــاولت منهـا الشعوب الناشـــئة ، فكان هذا التراث الخالد نواة المدنيـــة ومبعث الحضارة .

فالى كل مصرى يحن إلى ذكريات أجداده ، ويتطلع إلى حضارتهم ، التى لم ولا ولن تدانيهم فيها أمة من أمم الأرض قاطبة ، أدلى بمـا جادت به قريحتى ، راجياً أن أكون قد

وفقت إلى وضع حجـــر - وإن كان صغـــيراً - فى صرح الثقافة العتيـد .

وإن يكن لهـذا الجهـد المتواضع ، دَيْنٌ فى عنق قرائه وأرادوا أن يوفوه ، فليكن شـــكراً عاطراً الى حضرات الذين ساهموا فى هذا الكتاب قبـــل إخراجه . وأخص بالذكر منهم صديق وأخى محمـد افندى محمـد زيتون ، فقد كان لتشجيعه ومساعدته أبلغ الأثر فى نفسى وفى كتابى .

اسكندرية فى مايو سنة ١٩٣٤ عبد الحميد سالم

مراجع الكتاب

Pitrie	— *History of Egypt.*
	— *Arts and Crafts.*
	— *Ten years Digging in Egypt.*
Breasted	— *Ancient Times.*
	— *The History of the ancient Egyptians.*
Wallis Budge	— *The Nile.*
	— *The Literature of the Ancient Egyptians.*
	— *The Book of the Dead.*
Baikie	— *Ancient Egypt.*
Seignbos	— *Ancient Civilisation.*
Cambridge	— *Ancient History.*
Marvin	— *The Living past.*
H. R. Hall	— *The Ancient History of the near East.*

الفصل الاول

المدنيـــة الانسانيـــة

ماهيتها وأدوار نشوئها

اتفق المؤرخون ، على تعريف المدنيـة الانسانيـة ، بانتقال الانسان من عيشة الوحشية فى الغابات ، إلى معيشـــة المدنية فى المدن وما بماثلها من جماعات كبـــيرة . على أنه من الصعب فى الواقع ، تعريف المدنيـة تعريفا كاملا . وخير الطرق لفهم المقصود منها ، هو أن نقارن بين حالتى الانسان المتمدين والغير المتمـــدين . أو بعبارة أخرى بين حالة الانسان المتوحش ، التي لايزال أثرها موجوداً ، وبين حالة الانسـان الذى يعيش فى العصر الحاضر . فنرى أن الفرق شاسع جـــدا من جميع الوجوه الحيوية ، فى مستوى الحيـــاة الأدبيـــة والمـادية والاجتماعية ، وفى كل مجال للحياة الانســـانية . وإليك بعض ميزات للانسان المتمدين على الانسان الغير المتمـدين :

فالانسان المتمـــدين اكتسب بتجاربه فى عصوره المختلفة معلومات كثيرة ، وهذه المعلومات مرتبـة ترتيبا عقلياً منطقياً ،

بحيث أصبح سهلا عليه تطبيقها على الوسط الذى يعيش فيه ، وعلى الأحوال التى تحيط به ، وعلى البيئة التى يسكنها . أما الانسان الوحشى فهو عارى العقل كما هو عارى الجسد .

والانسان المتمدن يعيش بين أمم وشعوب متعارفة ، ومرتبطة بأمتن الروابط واقواها ، كالرابطة الاقتصادية مثلا . أما الانسان المتوحش فيقطن بين جماعات قليلة تكاد كل جماعة منها تكون منفصلة انفصالا تاماً عن باقى الجماعات .

وقد تمكن الانسان المتمدين بقدرته المادية من التغلب على كثير من العوامل والعوارض الطبيعية التى تصادفه فى طريقه ، مما تعذر بالطبع على الانسان الأول ساكن الكهوف والاحراش .

مما تقدم نرى أنه من الصعب أن نحدد تماماً الفرق بين الانسان المتمدين والانسان المتوحش ، ولقد أراد كاتب أن يحصر المدنية فى جملة واحدة فقال « من البلطة المصنوعة من الحجر الى الآلات البخارية » - مثال مادى محسوس فى غير ما حاجة الى برهان .

رسمنا بالقلم السريع شيئا عن ماهية المدنية . والآن لنحاول أن نذكر أحدث المباحث التى قام بها العلماء بشأن ظهور الانسان على الأرض ومنشأ مدنيته . وان كان

لايزال البحث عن أحافير الانسان الأول ، الذى عاش على هذه الأرض لايزال مستمراً فى كل مكان ، ولا يمر يوم إلا ويكتشف فيه العلماء أحافير بشرية جديدة ، ترجع منشأ المدنية قرونا إلى الوراء . والسؤالان المعضلان اللذان يشغلان اليوم بال كل عالم هما : اين بدأت حضارة الانسان ؟ ومتى بدأت ؟

ولقد أصاب علماء الآثار بعد الحرب قسطا كبيراً من النجاح ، إذ توالت اكتشافات الاحافير فى كل مكان وأجمعت كلها على ان عهد المدنية الأول كان فى بقعة من الأرض بين مصر والهند - ولعلها هضاب فارس أو مايجاورها .

ويقال بوجه الاجمال ، إن الحضارة بدأت عند ما أدرك الانسان أن فى وسعه الحصول على كفايته من الغذاء بزرع بذور أنواع برية من الحبوب كالقمح والشعير والذرة وما أشبه ، وبعبارة أخرى عند ما اكتشف فن الزراعة . وتدل الآن القرائن المختلفة على أن ذلك الاكتشاف تم قديما جدا - أى منذ نحو عشرة آلاف سنة - وهذا أقدم من كل تاريخ كان يفرضه علماء الاجتماع لاكتشاف الزراعة حتى الآن .

على أن الانسان ، لم ينتقل من طور صيد الأسماك والحيوانات ، الى طور الزراعة بوثبة واحدة ، بل قضى فى ذلك

الأحقاب الطويلة . ولما اكتشف فن الزراعة ، وضع حجر الأساس لبناء صرح الحضارة ، وقام هذا الصرح بعد ذلك على عدة أركان هى تقسيم العمل ، ومقايضة السلع ، وبناء المدن .

وقد جرى العرف ، على اعتبار الركن الأخير - أى بناء المدن - بدء مراحل المدينة . وفى الواقع أن اتفاق عدد كبير من الناس على بناء عدة مساكن فى مكان واحد للاقامة معاً كان بدعة جديدة فى نظام حياة الانسان الأول ، وكانت هذه البدعة تقتضى إحداث إنقلاب عظيم فى عدة مناح من مناحى حياة ذلك الانسان ، لكى يتفق نظام معيشته الجديد مع بيئته الطارئة ، وأهم وجوه ذلك الانقلاب نشوء النظام والحكومة .

وبشروع الانسان فى سكنى المدن ، وصل إلى مرحلة جديدة من مراحل نشوئه . ولدينا الآن البراهين القاطعة على أنه وصل إلى تلك المرحلة منذ ستة آلاف سنة وأن أقدم مدن العالم المعروفة كدمشق وأثينا وروما وقفط وغيرها ، حديثة العهد جداً بالنسبة إلى العصر الذى بدأ فيه الانسان بتشييد المدن ، وأن مدنا كثيرة ظهرت فى العالم فى الأزمنة الغابرة ولم يبق لها أثر سوى العشب الذى ينمو اليوم على طلولها . وهذا دليل على أن الفناء يدرك المدن كما يدرك الأفراد .

ولا بد لنا من القول هنا بأن للبحث عن منشأ المدنية أسلوبين ، يقضى أولهما بتتبع آثار تلك المدنية من أقدم أزمنتها فصاعدا ، ويقضى ثانيهما باستقصاء تلك الآثار رجوعا إلى الوراء أى أن فريقا من علماء الاجتماع يدرسون تاريخ المدنية منذ ظهورها فقادما ، وفريقا آخر يدرسون ذلك التاريخ منذ النقطة التى وصلت اليها المدنية فراجعا . وإلى الآن لم يتقابل ذلك الفريقان ، لأن ثغرة عظيمة لاتزال تفصل بينهما ، وهما يحاولان سدها لاكمال السلسلة . وهذه الثغرة هى فى الحقيقة أهم أطوار النشوء لأنها تتناول الطور الذى انقلب فيه الانسان من (عبد للطبيعة) إلى (مستعبِد للطبيعة) كما يعتقد .

ولإيضاح ما تقدم ، نقول إن بعض علماء الآثار يبحثون عن أقدم الأحافير البشرية على رجاء أن يتمكنوا من تحديد الزمن الذى ظهر فيه الانسان على الأرض ، وتتبع نشوئه ورقيه . هؤلاء هم أتباع أسلوب الأول الذى أشرنا إليه . وأما أتباع الأسلوب الثانى ، فانهم يدرسون تاريخ الحضارات المختلفة ، راجعين بها خطوات إلى الوراء . على رجاء أن يتقابلوا مع أتباع الأسلوب الأول عند تلك المرحلة التى لاتزال مجهولة من مراحل نشوء الانسان . ونعنى بها النقطة التى انتقل عندها من مخلوق يعيش فى الكهوف والغابات

ويشتغل بالصيد إلى مخلوق آخر يعرف الزراعة ويسكن المدن . وقد أسفرت مباحث الفريق الثانى عن الرجوع خطوة جديدة إلى الوراء . إذ ثبت على وجه لا يقبل الشك ، إن الانسان كان ، كما تقدم ، يسكن المدن منذ ستة آلاف سنة . على أن كونه سكن المدن منذ تلك المدة لا يعنى أن ذلك كان أول عهده بالمدن . فان هنالك قرائن جلية تدل على ان بعض مدن العالم كانت منذ ستة آلاف سنة مزهرة وقد بلغت أوج مجدها ، وأن مدينة « أور » الكلدانية مثلا (وقد ورد ذكرها فى التوراة) كانت منذ ستة آلاف سنة ، كبيرة جداً لا يقل عدد سكانها عن أربعمائة الف نفس ، ان لم يكن أكثر ، ولكى تبلغ المدن هذه المرتبة من العظمة والرقى ، لابد ان الانسان سكن المدن قبل ذلك الزمن بكثير .

ومما يجدر بالذكر أن أشر (Usher) رئيس أساقفة انجلترا سابقا ، زعم أن الله خلق العالم سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد . أى منذ نحو ستة آلاف سنة ، وبنى زعمه هذا على حوادث ورد ذكرها فى التوراة . ولاريب أن حسابه هذا خطأ ، وليس بين علماء الدين من يسلم به ، لأن التاريخ قد أثبت بوجه لا يقبل الشك أنه فى سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد كانت بلاد مصر وما بين النهرين ذات حضارة راقية ، وكانت ضفاف النيل

والفرات سهولا كثيرة الخصب والماء . أضف إلى ذلك أن اتباع (الأسلوب الاول) الذى سبقت الاشارة إليه ، قد عثروا على أحافير بشرية قديمة وعلى كهوف كان الانسان يسكنها منذ نحو عشرة آلاف سنة . وفى خلال المدة الواقعة بين ذلك التاريخ وبين أول عهد الانسان بالمدن (وهى مدة لاتقل عن أربعة آلاف سنة) كان الانسان الأول - ولعله من أصل أسيوى أبيض اللون - يضع أسس المدنية الحاضرة . .

ولنتتبع الآن جهود العلماء للكشف عن تاريخ الانسان الأول الذى كان يسكن الكهوف قبل فجر المدنية إلى الزمن الذى اكتشف فيه فن الزراعة . ولا يخفى أن لعلماء الأنثروبولوجيا (علم وصف الانسان) نقطا جلية يبدأون منها مباحثهم الخاصة بالحوادث التى وقعت قبل زمن التاريخ المعروف . ولدى علماء الجيولوجيا براهين تثبت أن العصر الجليدى انتهى فى غربى أوربا منذ نحو عشرة آلاف سنة . وانتهاء هذا العصر هو بدء مرحلة مهمة من مراحل نشوء الانسان ، وقد كانت أوربا يومئذ مأهولة بعدد قليل من السكان يعيشون على الفطرة ويصطادون الأسماك والحيوانات ولا يعرفون شيئا عن الزراعة أو الغزل أو النسيج أو صناعة الفخار أو المعادن أو ما إلى ذلك من مظاهر المدنية . وكانت جميع آلاتهم وأدواتهم

من العظام والحجارة . ولم يكونوا يسكنون فى بيوت مبنية ، بل كانو يعيشون فى الكهوف والغابات أو فى العراء . وتدل جميع القرائن على أن الزراعة لم تعرف فى غربى أوربا حتى الألف الثالث قبل التاريخ الميلادى، مع أنها كانت معروفة عند المصريين قبل ذلك بنحو ألفى سنة على الأقل . ولما تعلم سكان أوربا الزراعة ، كان المصريون قد فرغوا من بناء أهرامهم فكانوا يسبقون الأوربيين بمراحل . وهذا يثبت لنا أنه من العبث أن نبحث فى أوربا عن منشأ مدنيتنا فانها لم تنشأ هناك بل فى الشرق . .

أما سكنى الكهوف فلم نكن قبل سنة ١٩٢٥ نعرف عنها شيئاً يستحق الذكر . ففى تلك السنة كان شاب من متخرجى جامعة اكسفورد (يدعى نورفيل بيتر) يقوم بالبحث عن الآثار فى كهف من كهوف فلسطين على الساحل الغربى من بحر الجليل ، فعثر فى الكهف على أحافير قديمة وأدوات حجرية ، ظهر من فحصها علميا ، أنها ترجع إلى حوالى ٣٠٠٠٠ سنة قبل التاريخ الميلادى أى أن عمرها إثنان وثلاثون ألف سنة ، أو أكثر من ذلك . وقد ثبت من تلك الأحافير والآثار أن أهالى فلسطين فى ذلك العهد كانوا يشبهون الشعب الذى كان يسكن أوربا ثم انقرض ويعرف بالشعب النياندرتالى .

وفى السنوات ١٩٢٨ و ١٩٢٩ و ١٩٣٠ توالت سلسلة من الاكتشافات المدهشة ، وهى تدل على تاريخ الشعب الفلسطينى ، الذى كان يسكن الكهوف منذ ٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد الى حوالى سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد ، وقد تمت جميع هذه الاكتشافات الآنسة (دوروتى جارود) التي تعتبر من أقدر علماء الأثروبولوجيا فى هذا العصر ، فقد نبشت كهفا بعد آخر من كهوف فلسطين ، وأشهرها كهف على المنحدر الغربى من جبال الكرمل ، يطل على سهل شارون ، الذى ورد ذكره فى التوراة ، والذى يصل إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط .

ففى هذا الكهف وجدت الأنسة (جارود) أحافير خمسين شخصا من رجال ونساء ، يمثلون الشعوب الأولى ، التى كانت تقطن البلاد المجاورة للبحر الابيض المتوسط ، ووجدت أيضاً مع تلك الأحافير أدوات مختلفة مصنوعة من حجر الصوان ، وبعضها نصال وقواطع قد تثلمت على وجه متماثل ، ولها بريق خاص لايمكن أن تكون قد اكتسبته إلا من قطع الحشيش أو سنابل القمح أو الشعير ، التى تحتوى على نسبة كبيرة من مادة السليكا ، وهذا دليل يكاد يكون قاطعاً على أن سكان فلسطين فى سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد (أى منذ نحو عشرة آلاف سنة) كانوا يحصدون القمح والشعير ، أى أنهم كانوا يعرفون الزراعة .

وقد كانت سوريا والبـــلاد المجاورة حقولا مختصة بزراعة القمح والشعير وما إليها منذ أقدم الأزمنة .

ترى مما تقدم أننا تتبعنا فى بحثنا أنصـــار الفريق الأول من العلمـــاء ، الذين يدرسون تاريخ الانسان منذ أول نشأته فصاعدا على رجاء الوصول إلى فجر المدنية . فيجدر بنا الآن أن نماشى أيضاً الفريق الثانى من العلمـــاء ، أى أولئك الذين يستقصون آثار المدنيـة رجوعا إلى الوراء ، وليس ثمـة خلاف على المصادر التى يجب أن نرجع اليها فى هذا البحث ، فهى بلاد ما بين النهرين ، وقد استأنف علمـاء الآثار بعد الحرب الماضيـة نبش آثارها ، وفحص أطلال منهـــا . وهنا لك اليوم عدة بعثات إنجليزية أميركيـة تقوم بالبحث عن الآثار وجمع كل مايتسنى جمعه من المعلومات .

وفى مقدمتها البعثة التى أوفدها المتحف البريطانى وجامعـة بنسلفانيا معاً ، والبعثة التى أوفدتهـا جامعـة اكسفورد ومتحف شـيكاغو . والأولى برآسة الأستاذ (ليونارد ولى) وهى تعمل فى منطقة أطلال (أور الـكلدانية) والثانية برآســـة الأستاذ (لنجدون) وهى تبحث عن خرائب مدينة (كيش) التى كانت اكبر مدن العالم قبل ازدهار مدينة بابل .

وقد حفر الاســـتاذ (ولى) فى منطقة خرائب (أور)

خندقا طويلا يبلغ عمقه ثلاثة وخمسين قدما ، قبل أن يصل إلى مستوى السهل ، الذى قامت عليه مدينة (أور) القديمة . وفى أثناء حفره الخندق مر بطبقات مختلفة من الأرض ، تحتوى على أدوات وآثار فخارية وحلى وبقايا قبور ، واستعان بجميع تلك الآثار ، ليس على معرفة عقائد القوم وعاداتهم فى معيشتهم وحفائرهم فقط ، بل على تاريخ تلك الآثار بوجه التحقيق . مثال ذلك انه لما وصل إلى عمق سبعة وثلاثين قدما ، علم أن طبقة الأرض المتراكمة هنالك ترجع إلى حوالى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وهذه الطبقة فخارية تكونت من رسوب مياه فيضان عظيم . ويظهر أن ذلك الفيضان بلغ ارتفاع ستة عشر قدما فوق مستوى السهل الأصلى الذى بنى عليه سكان (أور) مدينتهم فى تلك الأزمنة .

وإذا رجعنا إلى حساب (أشر) رئيس أساقفة انجلترا سابقاً (وقد تقدمت الاشارة إليه) وجدناه يشير إلى الطوفان الذى ورد ذكره فى التوراة ، ويقول إن ذلك الطوفان وقع سنة ٢٣٤٨ قبل الميلاد . على أن الآثار التى ظهرت فى مدينة (أور) ترجع ذلك الحادث إلى الوراء ، وتفرض وقوعه حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . وفى الواقع أن الاشارات التى وردت فى التوراة ، تتفق كل الاتفاق مع النتائج التى وصل اليها

الأستاذ (ولى) وتثبت أن الأرض كانت قبل ذلك الطوفان عامرة بالمدن . وبعبارة أخرى أن الانسان كان ملما بالحضارة ويسكن المدن قبل ذلك التاريخ ، لأن المدن التى كانت قائمة يومئذ كانت عامرة مزهرة ، ولا يمكن أن تكون قد بلغت تلك المرتبة من الرقى إلا بمرور الأحقاب الطويلة .

أما مدينة كيش أو قيش، فيعتبرها علماء التاريخ أقدم المدن التى قامت فى بلاد مابين النهرين . وقد بلغت أوج مجدها عند ختام الألف الرابع قبل التاريخ الميلادى . وفى الواقع أن هذه المدينة بلغت من الكبر والاتساع مبلغاً يجعلها فى مصاف المدن الكبرى فى هذا العصر ، فقد كانت مساحتها نحو خمسة وعشرين ميلا مربعاً . واذا فرضنا أن كل فدان من أرضها كان يسكنه مائة شخص فقط (وهو قليل جداً بالنسبة إلى ما نعرفه عن مدن الشرق عامة) كان مجموع عدد سكان (أور) لا يقل عن أربعمائة الف نفس .

وفى كيش ، عثر الأستاذ لنجدون على الآثار التى عثر عليها الأستاذ (ولى) فى مدينة (أور) ماعدا آثار الطوفان ، فانها أحدث زمناً فى (كيش) منها فى (أور) . وتفصيل ذلك أن الأستاذ لنجدون وجد تحت مستوى الطوفان فى (كيش) الآثار التى وجدها الأستاذ (ولى) فوق ذلك

المستوى فى (أور) وتفسير هـــذا ، أن أساس مدينة كيش وضع فى نحو الزمن الذى وضعت فيـــه أسس مدينة (أور) أو قبيلها بقليل جداً .

على أن تحت أسس مدينـــة (كيش) آثاراً غير موجودة فى (أور) ونعنى بهـــا رواسب العصر الجيولوجى المعروف (بالنيوليثى) أو العصر الحجرى الجديد ، وهو - باتفاق جميع علماء الانثروبولوجيا - فاتحة أطوار المدنيـــة . فقد ظهرت يومئذ الزراعة واخترع الانسان الحيـــاكة والنسيج وصناعة الأدوات الفخارية . أما صناعة المعادن فلم تكن معروفة بعد .

وعثر الأستاذ لنجدون أيضا تحت أسس مدينـــة كيش على طبقة من الرواسب الغرينية تبلغ ثخانتهـــا تسعة أقدام ، ويظهر أن سكان تلك السهول كانوا أثناء رسوب تلك المواد فى طور الحضـــارة (النيوليثية) يقيمون جماعات جماعات ولم يكن عصر بناء المدن قد بدأ بعد .

وعثر السر (جون مارشال) فى وادى نهر السند على آثار مدن كانت زاهرة هنالك عند ختام الألف الرابع قبل التاريخ الميلادى . وعثر أيضا على آثار فى الهضاب المجاورة لذلك النهر تدل على أن قوما كانوا يسكنوها عند انبثاق فجر المدنية .

وجميع القرائن تدل على أن تيار المدنية اندفع من هنالك

ومن سهول العيلاميين غربا إلى ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب وسوريا وفلسطين ومصر. ثم اندفع شرقا إلى الهند والصين وانتقل بالتدريج بعد ذلك إلى سائر انحاء المعمورة ومن جملتها أوربا وأمريكا.

هذا وصف موجز لنشوء المدنية البشرية منذ فجر التاريخ إلى الآن، تتبعناه بالاسلوبين اللذين تقدمت الاشارة إليها. ويؤخذ مما تقدم، أن الانسان خرج من طور سكنى الكهوف إلى طور الاجتماع، فى الألف الثامن قبل التاريخ الميلادى أى منذ نحو عشرة آلاف سنة. ومنذ ذلك اليوم بدأ يتحضر ويمارس الزراعة. وتدل جميع القرائن على أن الانسان خرج من طور سكنى الكهوف إلى طور المدن، فى المدة الواقعة بين الألف الثامن والألف الخامس قبل الميلاد.

وفى الواقع أن المدن كانت مزهرة فى ما بين النهرين وفى هضاب إيران فى الألف الخامس قبل الميلاد، ولكى تكون مزهرة لا بد أنها اجتازت مرحلة طويلة من الزمن حتى بلغت تلك المرتبة. وهذه المرحلة لاتزيد على ثلاثة آلاف سنة لأن الانسان كان فى الألف الثامن قبل الميلاد يسكن الكهوف. وفى الألف الخامس كانت له مدن زاهرة.

فالشوط الذى اجتازته المدنيـــة بين تاريخ سكنى الكهوف . وتاريخ ازدهار المدن كان شوطا عظيما جداً . ويكاد يكون بلوغ المدنيـــة تلك المرتبة الساميـــة ، فى تلك المدة القليلة (وهى ثلاثة آلاف ســـنة) من أدهش ماوقع للانسان فى أثناء تطوره .

الفصل الثانى

مصر مبعث حضارة العالم

كان قدماء المصريين يسمون مصر « أرض كيمى » أو « خيمى » ، ومعناها السوداء ، إشارة إلى الفارق فى اللون بين رمال الصحراء ، وبين الأراضى الزراعية فى مصر .

وسميت مصر فى الكتب العبرية ، « بمصرايم » نسبة إلى ثانى أولاد حام . ولا يخفى مابين هذه التسمية ، وبين المشهور من أن سكان مصر الأصليين يتصل نسبهم بحام ابن نوح . ويقال إن العرب اتخذوا كلمة مصر وهى المفرد من مصرايم .

وكان الأشوريون يسمون مصر (مُصُرْ) ، كما ثبت فى نقوشهم .

ونقل المقريزى أن مصر ، كان اسمها قبل الطوفان (جزلة) ولكن ليس ثمة دليل على صحة قوله هذا كما أنه ليس من دليل على مقول من قال إن اسمها قديما ، كان « أفسوس » أو « مقدونيه » أو غير ذلك مما يرويه المؤرخون بلا تثبت .

وقد استدل بعض علماء الآثار الحاليين ، على أن مصر كانت تسمى عند أهلها القدماء بأسماء مختلفة ، أحدها (بق) ومعناه شجرة الزيتون ، أطلقوه عليها ، لكثرته فيها إذ ذاك . الثانى (تمرا) أى الأرض المتشبعة بالترع والخلجان . الثالث (نهى) ، وهو شجر الأثل ، وغيرها .

واسم مصر المتداول فى لغات أوربا ، وهو فى الفرنسية (Egypte) وفى الانجليزية (Egypt) وما يقارب ذلك فى اللغات الأوروبية الأخرى ، وهى جميعا ترجع إلى أصل يونانى قديم (ايجبتوس) بلفظ الجيم المصرية ، نسبة إلى سكانها (القبط) ، أو نسبة إلى مدينة قبط أو قفط ، التى كانت قديما من مدن مصر العظيمة .

وقد أراد العبرانيون أو اليهود بتسميتهم لهذه البلاد (مصر) - على مانرى - الاشارة إلى ما قاسوه فيها من الشدة والاضطهاد ، كما هو مشهور . لأن لفظ (مصر) عندهم ، مشتق من (صر) فى اللغة العبرانية ، ومعناها (الشدة والضيق) ، ومصر اسم مكان منها ومعناه مكان الشدة والضيق .

وقد أسس (جبرائيل هانوتو) المؤرخ والسياسى الفرنسى المشهور نظريته فى تطور الاجتماع على المباحث التى قام بها

فى تاريخ مصر . إذ لاشك أن فى هذا التاريخ ، جميع الفروض والبيانات ، التى يحتاج اليها العاقل ، لتقدير سير الحوادث فى المستقبل . ولقد أماط لنا علماء الآثار المصرية اللثام عن الأدوار الطويلة التى استغرقها نشوء الحضارة قديما .

وغنى عن البيان ، أن هنالك أسباباً كثيرة ، تحملنا على الاعتقاد أن تاريخ الانسان فى أفريقيا ، يرجع إلى نحو مائة الف سنة قبل التاريخ الميلادى . وفى هذه الفترة الطويلة ، تعاقبت فى أفريقيا أجيال كثيرة ، كانت تظهر مدة ثم تنقرض ومن دواعى الأسف أننا لم نعثر حتى الآن ، على هيكل عظمى واحد ، يرجع إلى تلك الأحقاب الخالية . وما نعلمه عن الانسان فى ذلك العهد ، إنما هو مستفاد من الآثار الحجرية والفخارية ، التى تركها وراءه .

ولم تكن حضارة هذا العهد ، السابق لأزمنة التاريخ المعروفة ، منتشرة فى ذلك الجزء من العالم المعروف اليوم بافريقيا فقط ، بل كانت منتشرة فى البلاد المجاورة لسواحل البحر الأبيض المتوسط أيضاً ، وكانت أفريقيا تمتد يومئذ جنوبا إلى أبعد من حدودها الحالية . ويسمى العلماء الانسان الذى ظهر بها فى تلك الأزمنة ، « الانسان الأفريقى » وهذا أمر حرى بالاعتبار . فالانسان فى ذلك الطور كان إنسانا

بكل معنى الكلمة ، وقد بلغ فى رقيه الدرجة التى هو عليها فى هذا العصر . والدليل على ذلك انه كان يفكر ويحسب ويظهر العواطف التى يمتاز بها الانسان اليوم ، ولا سيما عاطفة الحب . وكانت جميع آلاته وأدواته مصنوعة على شكل يشف عن قوة عاقلة . وكان لمصنوعاته وآنيته الفخارية شكل هندسى يدل على المامه بالحساب . أضف إلى ذلك أنه كان أليفا ينفر من العزلة ويميل إلى الاجتماع ، وفى ذلك دليل على اتصافه بعاطفة الحب ، وبعبارة أخرى ، أن الانسان الذى كان عائشاً على الأرض قبل المسيح بمائة الف سنة كان له دماغ تام كدماغ الانسان فى هذا العصر ، وكان إدراكه على درجة عالية من الارتقاء .

ولننظر الآن فيما وقع بعد ذلك . فقد مرت عدة قرون لانعلم عنها وعن حالة الانسان فيها شيئا على الاطلاق . وحالما انقضت تلك القرون ظهرت المدنية فجأة ، واكتشف الانسان نهر النيل واكتشف فى واديه مرعى خصباً وأرضاً تصلح للسكن والاستثمار ، ويمكننا أن نسمى هذا الجزء من تاريخ الحضارة (بحضارة الفصول) أى التى أدرك فيها الانسان تعاقب الفصول ، ووجوب الاحتياط ، فى بعض فصول السنة ، للفصول الأخرى ، وجمع الزاد والمؤونة وادخارهما لوقت الحاجة .

تُرى متى وفق الانسان الى اكتشاف نهر النيل ؟ لاشك أن ذلك من أهم الحوادث التى وقعت للانسان منذ وجد على الأرض ، وقد كان سبب أكبر انقلاب طرأ عليه . وتدل المباحث التى قام بها العلماء ، على أن هذا الاكتشاف تم فى الوقت الذى ظهرت فيه فكرة (التقويم) عند الانسان فى أول الأمر . وقد ظهرت هذه الفكرة عند ما أدرك الانسان لظهور الشمس والقمر مواعيد ثابتة . ولا شك أن الذين ظهرت عندهم فكرة التقويم لأول مرة لحظوا بعد تكرار المراقبة أن ظهور النجم المعروف بالشعرى اليمانية يتفق مع وضع معين للأجرام الفلكية ، ولما كان هذا الوضع يتكرر مرة كل أربعة آلاف سنة ، فمن المعقول أن نفرض أنهم بعد رصد ذلك الوضع ثلاث مرات أو أربعاً ، استخلصوا لها ناموسا ثابتاً . وهذا يدل على أن فكرة التقويم لم ترسخ فى ذهن الانسان ، إلا بعد اثنى عشر أو ستة عشر الف سنة من إدراكه للأفلاك حركات ثابتة ونواميس لايتطرق اليها الخلل .

ومن دواعى الأسف ، أنه ليس لدينا عن هذا الدور من أدوار التاريخ أى أثر جلى . ولا شك أن أقدم أثر مادى تركه الانسان هو الأهرام ، التى ترجع إلى خمسة آلاف سنة

قبل المسيح . ونحن نعتقد أن هـذه الآثار، الخالية من كل شائبة، دليل على أن الذين وضعوا تصميمها كانوا على مقدار من الذكاء لم يقرب أحد من البشر منه حتى الآن . فالاهرام هى مظهر من أجمل مظاهر هندسة البناء، بل هى دليل ذوق فنى عظيم . ولا شك أن ناطحات السحاب الأمريكية تبدو بازائها صغيرة تافهة .

ولنا من هذا أول عبرة نستخرجها من درس تاريخ الأقدمين .

وهى : أن ناموس الارتقاء خطأ محض ، وأن رواية التوراة عن خلق الانسان فى حالة الطهارة والمعرفة الكاملة ، أقرب إلى الحقيقة .

وهنالك عبرة أخرى نستفيدها ، عبرة ناموس (التناوب) فالحضارة ترمى دائماً إلى اكتشاف الوحدة فى جميع مظاهر الكون ، أى أنها ترمى إلى إثبات أن ناموساً واحداً هو أساس الحياة . ولكن أهواء البشر ومصالحهم تعبث بذلك وتحاول افساده . وهذا يتضح جلياً من تقهقر الفن المصرى بمرور الزمن حتى صاروا يصنعون تماثيل الفيران والجعران والحيوانات الدنيا ، بعد أن كانوا يبنون الآثار الخالدة ، فكأنهم وضعوا الفن ثم حقروه . ومثلهم فى ذلك مثل من يصنع ثوبا جميلا

ثم يمزقه ، ثم يعود فيحاول إصلاحه . وفى الواقع أنهم عندما شرعوا فى تقييد الاله بشكل مادى محدود يشغل حيزا مكانيا ، أنزلوه عن شاهق منزلته وحقروه .

وطفقوا بعد ذلك يحاولون إعادته الى مركزه . فماذا حدث ؟

لم يشأ الله أن يتركهم فى الظلام ، فبعث إليهم بالأنبياء ليعيدوهم إلى الحق ، وإلى فكرة الوحدة التي وجدت عندهم فى الأصل . وتعاقبت الحوادث بعد ذلك بالتناوب : نور ، ثم ظلام ، ثم نور ، ثم ظلام - وجاء بعد نور الأنبياء ظلمات كليوباطره والاسكندرية والعالم البيزنطى ، وعقب ذلك ظهور النبى محمد ، فأنهض العالم إلى نور الوحدة والبساطة .

وهكذا دواليك - يتعاقب النور والظلام .

الفصل الثالث

مصر

وصفها وجنسية سكانها

مصر كما قال هيرودوت « هدية من النيل » . والنيل بين جنادل أسوان والبحر الأبيض المتوسط ينقسم إلى جزءين يمتاز أحدهما عن الآخر تماما : يجرى الجزء الأول منه فى صدع فى الهضبة الأفريقية ، والثانى فى سهل من الطين من صنعه فانقسمت مصر بذلك قسمين مختلفين : مصر العليا ومصر السفلى ؛ الصعيد والدلتا .

أما مصر السفلى فدلتا تكونت فى البحر الملح فى آلاف من السنين . وقبل أن تتولاها يد الانسان بالصرف والزرع كانت حمأة مستوحلة يكثر فى مستنقعاتها السمك والطيور المائية .

وغربى الدلتا تمتد الصحراء الأفريقية ، وبها بالقرب من مصر سلسلة من الواحات . ويسمى هذا الغرب (ليبيا) ومنها غزا مصر ، فى مختلف العصور ، أقوام شتى ، أخرجتهم من مواطنهم السنون المجدبة .

وشرقى الدلتا صحراء جرداء. ولكنها لم تمنع عن مصر اغارات المغيرين، ففيها مسالك ودروب توصل لآسيا.

ويحف بالصعيد من الجانبين حافتا الهضبة، ويختلف عرضه بينهما. وجنوبى طيبة يضيق إلى ميلين. وعند اسوان وحلفا تعترض النهر أحجار شديدة الصلابة هى الجنادل.

وليس الصعيد بمعزل عن الأرض، شرقيه وغربيه، فكلتا الحافتين تشقها فى عرضها ودبان عدة، ومن أشهرها وادى الحمامات ويمتد إلى البحر الأحمر من النيل عند قفط، ويلاحظ اقتراب النيل هنالك من البحر الأحمر. ويمتد فى المنطقة نفسها مسلك آخر نحو الواحة الخارجية، وبذلك كانت هذه المنطقة ذات شأن خاص فى تاريخ مصر القديمة.

هكذا مصر كل مافيها متوقف على فيضان النيل، يترقب أهلها ارتفاعه كل عام منذ آلاف السنين، ويتساءلون فيما بينهم عن عوامل ذلك الارتفاع، ولكن الجواب عن ذلك ليس فى استطاعتهم، فالنيل يجرى من بلاد بعيدة لم يعرفوا عنها شيئاً، وكل مايمكنهم عمله هو العناية بحبس الماء، والقسط فى توزيعه، ومنع الاسراف فيه.

ولقد وصف كتاب اليونان، المصريين فنسبوهم إلى الجنس الأسود، ووصفوهم بأن شفاههم غليظة، وأرجلهم وسيقانهم

رفيعة ، وشعرهم أجعد . على أن مائركه قدماء المصريين من المومياات والتماثيل ، تدل دلالة واضحة على أن المصريين لم يكونوا من الجنس الأسود . فقد عثر (ماريت باشا) فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، على بقايا جنس من الاجناس، فى نهاية حدود مصر الشمالية الشرقية ، ويختلف هذا الجنس فى خصائصه عن المصريين القديمين والحديثين . ويظن أن هذا الجنس هو الجنس الأصلى الذى كان يسكن مصر فى العصور الأولى . جنس افريقى أصلى ولكنه لم يكن ينتمى الى الجنس الأسود . ثم أن موقع مصر بين الأجناس الاسيوية والافريقية جعل امتزاج مصر بهذين الجنسين أمرا لامناص منه .

ولقد خلف قدماء المصريين فى عصورهم المختلفة موميات تدل على تعدد الامتزاج الدموى فى عصور متباينة . وذكر سواد المؤرخين أن المصريين سلالة عنصرين أفريقيين هامين :

سكان الصعيد وهم جنس أقنى الأنف ناعم ، الشعر ، يشبه القبائل التي تسكن الآن بلاد الصومال شبها تاما .

وسكان الدلتا وهم ليبيون يشبهون الأسيويين الساكنين شرقى الدلتا ، ولغتهم سامية . والظاهر أن هؤلاء الليبيين تغلبوا على سكان الدلتا الأصليين ، وهم من الجنس الافريقى الأبيض ،

أو جنس البحر الأبيض المتوسط ، ودفعوهم نحو الصعيد . وقد أثروا فى لغتهم ودينهم ، وصبغوهم بصبغة أسيوية ، ونشروا صناعة المعادن . ثم حدث بعد ذلك تغلب أهل الصعيد على الدلتا ، وتأسيسهم مملكة واحدة نشطت فيها الحضارة .

وعلى ذلك لم تنشط الحضارة تبعاً لاغارة أجنبية ، ولا ينافى ذلك أبدا أن سكان الصعيد أصلهم من الصومال أو من شبه جزيرة العرب . وقد كان المصريون القدماء يعتقدون ذلك . ولهم فى ذلك قصة كبيرة منقوشة على جدران معبد ادفو الذى بنى فى عصر البطالسة . وملخص تلك القصة ، أن المعبود « حوريس » الذى كان ابوه يحكم فى بلاد النوبة ، ركب سفينة وتبعه كثير من الجند ، ونزل منحدراً فى النيل ، وكان وقتئذ يشغله المعبود «ست» وأتباعه ، وتقاتل المعبودان وأتباعهما إلى أن تم النصر لحوريس . ويرى المؤرخون أن تلك القصة مجموعة وقائع تاريخية حقيقية ، تناقلها المصريون إلى زمن البطالسة حين دونوها ، وأنها تشير إلى شيئين متميزين لم يحدثا فى وقت واحد وهما : قدوم أهل الصعيد من الجنوب الشرقى ، وانشاؤهم حكما قويا فى جنوب الصعيد ، وتغلبهم بعد ذلك على سكان الدلتا ، بعد أن تعلموا من أهلها صناعة المعادن الأسيوية الأصل .

الفصل الرابع

الديانة عند قدماء المصريين

كانت الديانة – على اختلاف اشكالها واختلاف درجات تقدمهـــا أو تأخرها – المحور الذى تدور عليه حياة الأفراد فى البيئات القديمة . ولقد تجلى للمصرى القديم آلهـــة فيما يحيط به من العوامل الطبيعية . فالسماء الزرقاء ، والشمس التى تشرق كل يوم بانتظـام وتغرب بانتظام ، والقمر المضىء ، والاشجـار الباسقة ، والطيور المغردة ، والحيوانات الأليفة . كل هذه كانت منبعاً استقى منه المصرى القديم كثيراً من عقائده الدينية . ولـكن فى الوقت نفسه نلاحظ أن نوع العوامل الطبيعية فى مصر كان له أثر على طبيعة العقائد الدينية بين المصريين .

الناظر الى وادى النيـــل ، يرى أرضاً خضراء ، تـكسوها المزارع ، تنقلب فجأة إلى صحـــراء قاحلة . يرى أرضاً منبسطة متشابهة ليس فيها تغيير ، يحيـــط بهـا سكون ممل . يرى برداً قارصاً فى الشـــتاء وحراً لافحاً فى الصيف . كل ذلك أدخل على طبيعة المصرى شيئاً من الملل فى الحياة ، وشيئاً من الحزن

فى الطبيعة . يتجلى ذلك فى الأغانى المصرية سواء منهـــا القديم أو الحديث . نغمات هذه الأغانى نغمات حزن ممـلة لأن الطبيعة فى مصر ممـلة . نغمات كلهـا تأوهات وشكاوى وكل ذلك راجع للعوامل الطبيعية .

ولمـا كان المصرى القديم عرضة لملاقاة صدمات طبيعية تضيع عليه مجهوده ، فقد أصبح أمله فى الحياة غير ثابت ، وأخذ ينظر إلى هذه الحيـاة كأنها مكان للبؤس والشقاء ، مما حمـــله على الاعتقاد بالترحيب (بآلهة الفزع) خشـــية أن تبطش به وتنتقم منـــه . ولقد كان لـكل قرية مصرية قديمة آلهة سوء ينسب اليهـا كل مايحيـــط بأهلها من المصائب فترى سكانهـا يجتهدون دائما فى ترضيتها بالتذلل والصلوات فى كل حين .

ولقـــد اعتقد المصرى القديم فى الحيـاة بعد الموت ، ولم يفسر الموت إلا بأنه كنوم النائم ، لابد أن يعقبه يقظة ، ويتلوه تجديد فى الحيـاة ، وهـــذا هو السبب فى الاعتقـاد السـائد (بالبعث بعد الحياة) .

رأى المصرى القديم أن الشمس تشرق كل يوم بجلالهـا فى الصباح ، فى جو خال من السحب . وقدر مالهـــذه الشمس من الفضل على حياته وعلى زرعه فأحلها محل الألوهية ، وقدسها فى كثير من أناشـيده الدينية وخاطب إله الشمس (بأنه الإله

الذى إذا ظهر فوق الافق قام الناس وجدُّوا وإذا اختفى تحت الافق ناموا وسكنوا) .

ولقد كان لإله الشمس عند قدماء المصريين أكبر منزلة . واطلقت عليه أسماء مختلفة منها (فتاح) فى ممفيس ، و (رع) فى عين شمس ، و (آمون) أو (آمون رع) فى طيبة ، و (آتون) فى تل العمارنه . والسبب فى اختلاف تسمية إله الشمس هو اختلاف الأمكنة التى كان يعبد فيها ، واختلاف نفوذه وأثره بأختلاف الظروف السياسية فى مصر وقتئذ .

ظل إله الشمس ملقباً فى أثناء الأسر الست القديمة (بأبى الآلهة كلها) فنُسِبَ إليه خلق الانسان . واعتقد المصريون القدامى أن الآلهة جاءت إلى الوجود من عينه ، والبشر خلقوا من فمه ، وكانوا يمثلونه على شكل مومياء محنطة تقبض فى يدها على قضيب الحياة والقوة .

وفى الأسرة الرابعة كان هذا الإله قد وصل إلى درجة من الأهمية والنفوذ ، أصبح معها ملوك الأسرة الرابعة ينسبون أنفسهم إلى هذا الإله ، كما يتجلى ذلك فى أسمائهم مثل (خفرع) و (منقرع) . وذلك بالطبع اشارة إلى الصبغة الالهية التى كان يتمتع بها ملوك مصر ، والتي كانت سبباً فى ازدياد ونفوذ هؤلاء الملوك فى الأسرة الرابعة كما يتجلى ذلك فى أهرامات الجيزة

التى بنيت لتنافس الدهر البقاء .

وفى الأسرة الخامسة ازداد نفوذ إله الشمس ازدياداً هائلا فى السلطة والجاه أكثر منه فى الأسرة الرابعة ، يدل على ذلك أن ملوك الأسرة الخامسة أصبحوا يعتبرون أنفسهم ابناء الإله (رع) ومن جسده .

وسادت الفوضى بعد الأسرة السادسة ، وخرج أمراء الأقاليم على سلطة الملك ، واستقلوا بالشأن فى أقاليمهم ، مما أثر على مركز إله الشمس .

وفى الأسرة السابعة عشرة وما وليها من الأسر التى قامت لتأسيس الامبراطورية المصرية ، سمى إله الشمس (بآمون) وهو الاسم الذى كان يطلق عليه فى طيبه . وكان المصريون فى ذلك الوقت يعتقدون بأن جميع الفتوحات التى يقومون بها هى فتوحات باسم الإله آمون ، وان الملك ماهو إلا وسيلة بعث بها الآلهة لتوسيع نطاق مملكة الآلهة ، وعلى ذلك فالملك أصبح يعتبر نفسه خليفة للآلهة لا فى مصر فقط ، بل وفى الأملاك التى زيدت عليها الآن .

ولما تولى الملك (أمنحتب الرابع) فى مصر ، وكان شديد الولع بالمسائل الفلسفية والدينية ، أراد أن يرغم الناس على اتباع دين واحد يتفق مع نظرياته . والإله الذى اعتقد فيه

امنحتب الرابع (اخناتون) لم يكن الشمس نفسها ، بل ماوراء الشمس من قوة هائلة مختفية عن الأنظار ، قوة تبعث أشعة الشمس فى كل مكان فتفيض معها الحياة فى كل تلك الأمكنة .

وقد دفع (اخناتون) إلى القيام بتلك الثورة الدينية ، مارآه حوله من تعدد الآلهة وتناقض بعض النظريات الدينية المصرية ، ورغبته فى التخلص من نفوذ كهنة الإلهة آمون ، وبلغ من شدة تعصبه ضد الإله آمون أنه غير اسمه من أمنحتب إلى اخناتون ، كما أنه مسح اسم أبيه من المعابد المصرية حتى لايرى كلمة آمون على جدرانه ، كما أنه جعل يكافىء كل من اتبع دينه من ضباط الجيش وموظفى الحكومة بشتى الهدايا ويخلع عليهم أرفع الرتب .

كان إله الكون فى نظر إخناتون إلها قويا ، إله الطبيعة ، بمعني أن كل ماهو طبيعى فهو من وضع الإله ، وقدرة الإله فالزهرة اليانعة ، والسماء الزرقاء ، والأرض والطيور والهوام ، كل هذه مظاهر من قدرة الإله . كذلك كان يقول اخناتون بأن كل ماهو طبيعى فهو من صنع الإله ، والله حق ، واذن فكل مايصنعه الإله فهو حق .

اعتقد اخناتون فى مبدأ الحق الإلهى المقدس للملوك ، فزعم أن إلهه خصه بمعرفة أسراره دون سواه ، بل وانه خلق

الأشياء كلها لمصلحة ابنه اخناتون الإله .

مما تقدم يتضح لنا جليا أن ملوك مصر القديمة كانوا يعتقدون بأن الله بعثهم رسلا من عنده ليحكموا الدنيا التى خلقها ، وليثبتوا قوته فى الأرض .

ولنذكر شـــيئاً مما كان يناجى به اخناتون الإله آتون ، « أنت آتون ، أنت فى قلبى ، وما يعرفك ويعرف كهنك الحقيق غير ابنك اخناتون . لقد خصصته بمعرفة شؤونك . كل مافى الدنيا فى يدك ، فان أشرقت عاشـــوا ، وان عزبت ماتوا . بروحك تعيش الانسانية ، وفى جمالك تتعشق . أنت الذى خلقت الدنيا وخلقت مافيها كى يحكمها ابنك اخناتون . »

غير أن الثورة الدينيـــة التى قام بها اخناتون فشلت فى نهاية الأمر لسياسة العنف والشـــدة التى اتبعها الملك ، من جهة ، ولأن هذه الثورة كانت مرتكزة على شخص الملك ، من جهة أخرى .

إنه من السهل على أي ملك مطلق التصرف أن يتخذ لنفسه ولحكومته دينا رسمياً ، ومن السهل أيضـــا أن يجبر الناس على التظاهر بخضوعهم لهـــذا الإله ، ولكنه من الصعب حمل الناس على الايمان بهذا الإله فى قلوبهم والاخلاص له . ولذلك فبمجرد موت اخناتون انقلب الناس من هـــذا الإله الجديد ،

وارتدوا إلى ماكانوا عليه من العبادات القديمة . وكان نصيب اخناتون من هذه الحركة الاصلاحية ، الاشارة له باسم مجرم اخيتاتون (تل العمارنه) وفى عصر خليفته (توت عنخ آتون) ، « صورة آتون الحية » ، نرى كهنة طيبه يرغمون الملك على تركه اخيتاتون والعودة لمدينة طيبه مركز عبادة الإله آمون ، واضطروه أيضاً إلى تغيير اسمه إلى توت عنخ آمون .

وغير إله الشمس من آلهة المصريين القدامى ، إله الموتى (أوزيريس) الملقب بملك الدنيا السفلى ورئيس المحكمة العليا للأموات ، وكان محبوبا من رعيته هو وأخته وزوجه (إيزيس) غير أن نفس أخيه (ست) كانت مملوءة بالخبث والخداع فأخذ يعمل على قتل أوزيريس والتنكيل به ، وانتهز فرصة وليمة من الولائم ودبر لأخيه مكيدة وقتله بعدها ووضعه فى صندوق ورماه فى النيل .

فحزنت ايزيس على ذلك حزنا شديداً وسكبت الدمع سخينا وتضرعت إلى الإله الأكبر بأن يرد اليها زوجها وأسهبت فى رثائه لشدة تأثرها عليه فقالت :

« وا أسفاه يا ملك السرور . يامن يشرح قلوب حلقة الآلهة . يامن ينير بجماله المتلألىء . أنا زوجك التى تحميك فى كنفها . أنا الأخت التى تحمى أخاها . عد إلىّ . دعنى أتمتع

عينى بك . يامالك قلبى وحبى . وا أســـفاه ياصاحب الصفات العليا . الممالك والأقطار تنوح عليك وتبكى ، والسماء والأرض تصبان دمعهما ، لأنك أعظم الآلهـــة . ارجع إلى معبدك ولا تخش بأســـا ولا يدخلن قلبك الخوف فان ابنك هورس سينتقم لك ويأخذ بثأرك ويفتك بالشياطين من أعدائك .

ارجع إلى زوجك ودعها تضمـــك بين ذراعيها . ارجع إلى زوجك التى تبكى وتنوح عليك وليس لها من غاية تصـــل اليهـا سوى حبـــك . انها حزينة القلب كسيرة الفؤاد لأنك أخذت منها على غرة وهى تنتظر عودتك .

ست عمـــل سوءا فسيجزيه الله شر الجزاء . ان زوجك الضعيفة ستأخـذ بثأرك بسبب ما جرى لك ، وتشفى لحمـــك الذى يكسو عظامك وتعيد أنفك إلى وجهـــك كما كان وتلم شعث عظامك المبعثرة ... ســـلام عليك يامولاى اتبعني بنورك الساطع ودعنى أرك كل يوم يامن رائحة لحمه كرائحة خشب بنت (Punt) »

هذا الرثاء يرينا إلى أى حد كانت المرأة المصرية فى العصور القديمة تحب زوجها حبا خالصا خاليا من الرياء ، حبا ممزوجا بحنو خالص من كل شائبة ، وحنان بعيد عن كل خداع .

تضرعت ايزيس إلى الإله الأكبر بأن يرد إليهـــا زوجها

وفعلا - بعد مدة طويلة - تقبل الإله الأكبر دعوات ايزيس ورد اليها زوجها فدبت فيه الحياة مرة ثانيـــة . ولما كان من المستحيل على اوزيريس بعـــد موته أن يستأنف شكله وحياته الدنيوية ، فقد استحال إلى ســـيد آلهة الدنيا السفلى وأصبح إله الموتى ورئيسا للمحكمة التى تحاسب الميت بعد موته .

وقد حدث أنه فى أثناء قيـــام ايزيس بتحضير المعدات لدفن اوزيريس ، كان يساعدها فى ذلك أحد آلهة الدنيا السفلى ، وهو ابن آوى الذى أصبح من ذلك الوقت إله التحنيط وذلك مكافأة له على عمله .

ولم يكتف ست بما اقترفته يداه فى قتـــل اوزيريس ، بل إنه نسب أموراً شائنة تلحق العار بشرف ايزيس عند ماوضعت ابنها هورس بعـــد وفاة زوجها اوزيريس . فلما شب هورس قامت بينه وبين (ست) مشاجرات عنيفة كان هورس يسعى فيها للانتقام لأبيه وأمه وفعـــلا تشاجر الاثنان وجرحا ولكن جراحات ست كانت أبلغ بكثير من جراحات هورس ، ولما ظهـــر الاثنان أمام المحكمة العليا للتقاضى حكمت المحكمة بصحة نسب هورس وبادانة ست الذى عرف منذ ذلك الوقت بإله السوء ، ولقد كان لهذه الخرافة الدينية أثر عظيم فى عقائد قدماء المصريين . فاعتقدوا أن كل من أحسن فى دنياه وخصوصا

كل من ذاقت نفسه الآلام مثل اوزيريس لابد له من أن يكافأ بنعيم فى الحياة الأخرى ، وبعكس ذلك يكون مصير من أساء فى دنياه كما هى الحال مع ست .

والمعروف عن اوزيريس أنه كان يرأس محكمة منظمة تتكون هيئتها من اثنين وأربعين قاضيا وكانت جلستها تعقد فى قاعة العدل واختصاصها محاسبة الميت على أعماله بعد تقديمه إلى هذه القاعة ، لينفى عن نفسه اثنين وأربعين تهمة ، فيقف الميت على باب ردهة الحق ويترافع عن نفسه قائلا « الخضوع لك أيها الإله الأعظم ، جئت إليك يارب خاشعاً لاعاين مجدك . أنى أعرفك وأعرف إسمك وأعرف أسماء الاثنين والأربعين قاضياً الجالسين معك فى قاعة العدل . . . لقد أتيت إليك متوسلا بالحق . لقد تخليت يا إلهى عن كل رذيلة ومعصية طمعاً فى حبك ورضائك . . . انى لم اسئ إلى أحد ولم أظلم أسرتى ولم أسلك طريق الظالمين ، ولم أعمل مايغضب الآلهة . . . انى لم أسئ إلى خادم ولم أهمل الجائع والمسكين ولم أقتل ولم أحرض أحدا على القتل . . . انى لم أحنث فى يمين ولم أسع فى ضرر عبد عند سيده ولم أكذب ولم أضمر لأحد سوءا ولم انتهك حرمة جثث الأموات ولم أرتكب الفحشاء ولم أدنس معبداً مقدسا ولم أبخس المكيال ولم أتعد على أرض

جارى ولا على ماخصص للآلهة من وقف . ولم أقتنص طيور الآلهـــة ولم اطارد ما بأرض الآلهـــة الموقوفة من حيوان . ولم أخالف نظـام الرى ظلمـــا وعدوانا ولم أتلف الأراضى الزراعيـة ولم أحمـــل عاملا على العمل فوق طاقته ولم أكن قوالا ولا نمـاما ولم أتعد على كاهن قريتى المقدس ،... تلك التهم التى ينفيهـا الميت عن نفسه ثم يتوســـل بعد ذلك إلى الآلهة بالعبارة الآتية ، « أنا طاهر . أنا طاهر . أنا طاهر . ســـلام عليكم أيهـا القضاة بقاعة الحق لاتنزلوا علىّ غضبكم ولا تقدمونى إلى إلهكم الأعظم مذنبا ولا تكونوا ســـبباً فى شقائى . قولوا انى برىء فانى لم أعمـــل إلا ماهو حق بمصر ولم أسب الإله ولم أنسب إلى الملك سوءا : الخضوع لكم أيهـا الآلهة ، خلصونى يوم الحساب العظيم . انى لم أعمـــل سوءا فلا تجعلوا للسوء إلىّ ســـبيلا . لقد أطعمت الجياع وسقيت العطشى وكسوت العراة اذن فكونوا حمـاتى وخلصونى ولا تنسبوا إلى الثم فى حضرة الإله الأعظم . انى طاهر اللسان طاهر اليدين فقولوا لى مرحباً مرحباً ادخل بسلام . »

بعد ذلك يعرض قلب الميت على الميزان ويوزن أمامه ريشة ، فاذا اتضح حسن عمـله وطهارة قلبه ، نطق (Thoth) إله الحكمة ومخترع الكتابة الهيروغليفية وكاتب هـــذه الحكمة

بالنتيجة التى دونها ، فيقول « اسمعوا أيها القضـــاة . لقد وزن قلبه فلم يوجد فيه اثم . انه لم يعمل سوءاً فى دنياه ولم يبدد شيئاً مما خصص للمعابد ولم يضر أحـــدا ولم يؤذ أحدا . ان مانطق به هو الحق الذى لايمكننا أن نفاوض فيـــه . فليدخل الآن إلى حضرة الإله اوزيريس ولتقـــدم له اللحوم والشراب وليكن مسكنه من الآن نعيم الجنة » وعلى ذلك يقدم الملك الميت إلى حضرة الإله اوزيريس الذى ينطق بالحكم الآتى : « فليخرج الميت فائزاً من قاعة العـــدل وليذهب حيثما شاء ولتفتح له أبواب الجنة وليرد له قلبه ولتوهب له حياة جديدة »

بعد ذلك يقدم إليـــه طعام مقدس تتحول به روحه إلى هيئة إلهيـــة . وأما إذا تبين أنه كان من المذنبين فينطق اوزيريس بالحكم قائلا : « ابعـــد عنى أيها الشرير واذهب إلى حيث تلاقى أشـــد العذاب . أيها القضاة اقتلوه بسيوفكم وتغذوا الآن من لحمه ودمه . لقـــد جعلتك غنيمة للوحوش والأفاعى » .

ونظرة عميقة إلى خرافة بكاء ايزيس وابنهالانها التى رققت قلب الإله ، فأعاد أوزيريس إلى نوع من الحياة هو فى الحقيقة صورة من صور النعيم - نقول نظرة إلى هـــذا ، تجعلنا نستبين وجه الشبه بينه وبين ما هو قائم بين ظهرانينا الآن من العادات

والتقاليد التى تقضى بجمع الأقارب وغير الأقارب للبكاء على الميت ، واقامة المأتم ثلاث ليال كاملة ، وعمل « العتاقات » والقراءات فى كل مناسبة ، واعتقاد العوام أن ذلك مما يكفل للروح الهدوء ، وللميت النعيم المقيم .

ونظرة أخرى إلى ما يعتقد المصريون حصوله بعد الموت من الحساب ثم الثواب أو العقاب ، تبين لنا مبلغ مافى شعائر هذه الديانة من القرب إلى أسمى الديانات القائمة اليوم .

ولولا تصور القوة الإلهية متجسمة فى أشخاص تارة وفى حيوانات تارة ، وفى أحجار أحيانا ، لكانت الديانة المصرية القديمة أقرب ماتكون إلى الدين الاسلامى السمح الحنيف ، ولكانت صلتنا الدينية بالعرب الأمجاد ، لاتختلف فى صميمها عن صلتنا الوراثية بالفراعنة البهاليل الكرام .

الفصل الخامس

طبيعة العقيـــدة المصرية

إذا طالع الانسان أناشيد المصريين وصلواتهم ومناجاتهم للآلهـــة يجد نفسه أميـــل إلى الاعتقاد بأن المصريين كانوا يعتقدون بوحدانية الله خالق الأرواح فى الأشـــباح ، بمضى الزمان وهو باق دائما . ومن هذه العبارات نشيدهم للإله رع ، نشيد كانوا يرتلونه عند طلوع الشمس ومنه نقتبس « الخضوع لك يامن اسمه رع . يامن نهب جمالك على الآلهـــة . أنت ملك الســـموات . أنت ملك الأرض . أنت خالق كل شىء يعيش على ماظهر من ســـطح الأرض وما اختفى فى باطنهـا . أنت الإله الواحد الذى جاء إلى الوجود . أنت الذى خلقت الأرض وصورت الانسان وبنيت قبة السماء المائية وكونت حابى Hapi إله النيل بقوتك . أنت الذى كونت مجارى المياه على أنواعها وخلقت ما بها من حياة . أنت الذى رفعت الجبـــال وخلقت الانسان والحيوان . أنت « الذى خلق نفسه بنفسه »

كذلك نراهم يصفون إله النيل (Hapi) ببعض الأوصاف

التي وصـــفوا بها (رع) . أما فيما يختص بعبادة الحيوانات كعجل أبيس مثـــلا فلم تأتهم هذه العقيدة إلا بعد اضمحلال مصر واضمحلال المدنيـــة المصرية والفلسفة المصرية ، ولذلك فانها جاءت فى العصور المتأخرة . وخير مكان توجد فيـــه الأدلة على مقدار اجـــلال المصريين لعجل أبيس هو معبد السرابيوم بسقارة .

ولقد كان المصريون يعتقدون أن جسم الانسان يتركب من الجسـد وهو الهيكل اللحمى للانسان والنفس وهى عبارة عن الجسم الثانى له فاعتقدوا ان لكل شخص رفيقا ثانيا يتشكل بشكل الجسد ، طفلا كان أو رجـــلا أو امرأة ، ويخلق مع صاحبه ويذهب معه أينما ذهب ويدفن معه فى القبر ، وخلاصة القول أن نفس الانسان كانت مقيـــدة بالزمان والمكان . أما الروح فكانت شـــيئا معنويا فى نظرهم تتقمص فى أى شكل يعجبها : فى شـــكل زهرة أو ثعبان أو تمساح أو طائر كيفما يتراءى لها ، وتنتقل من مكان إلى مكان كيفما شاءت ومتى شاءت . وبعبارة أخرى كانت هـــذه الروح تتمتع بقوة كاملة وحرية مطلقة وحتى بعد أن يموت الميت ويدفن فى القبر كانت روحه لاتسجن معه ، بل كانت تظل مطلقة السراح تنتقل من مكان إلى مكان وتزور صاحبها من وقت لآخر فى قبره . وهذا هو السبب

فى أن المصريين كانوا يضعون اما على باب حجـــرة المقبرة أو فى داخل الحجرة ، تماثيل للميت ، كما أنهم كانوا يكثرون من نقش صورة الميت على جدران الحجرة ، قاصدين من ذلك أن تتبين الروح صاحبها وتستطيع أن تزوره بين الفينة والفينة .

مدخل مقـــبرة مصرية قديمة

كذلك نرى المصريون يضعون فى هذه الحجرة شيئاً من الطعـــام حتى تستطيع الروح أن تتغذى منـــه عند زيارتها لصاحبهـا . كما أنهـــم كانوا ينقشون صورا على الحائط تمثل طيورا مذبوحة وانعاما مجهـــزة للاكل وخبزاً وغيره . وكانوا يعتقدون أنه بتـــلاوة التعاويذ والصلوات على هذه النقوش الممثلة للطعام تستحيل القوة المختبئة فى هـذه النقوش إلى طعام صالح للغذاء يمكن للروح أن تتغذى منه . ومما تقدم يتضح لنا جلياً أن الروح كانت فى نظر قدماء المصريين خالدة لاتموت مع الميت ، بل تبقى حيـــة كى تحفظ شخصية

الفصل السادس

النظام الحكومى والاجتماعى فى الدولة القديمة

كان المصريون القدامى فى بادئ أمرهم يعيشون جماعات قليلة ، تعمل كل جماعة لنفسها ، ورأوا من المصلحة أن يشترك كل عدد من هذه الجماعات فى عمل واحد يعود عليها بالخير كحفر قناة أو درء خطر ، فنشأ من ذلك أول نظام اجتماعى شهده العالم ، وتكون من مدن الجماعات المتقاربة إقليم ذو حكومة واحدة .

أما أزمة الأمور فى الأقاليم فكانت فى أيدى رجال الكهنة وكبار الملاك . وكان لكل أقليم آلهة خاصة به عدا ما كان يعبده المصريون جميعا من قوى الطبيعة كالشمس والقمر والنيل . واتخذ كل أقليم علما خاصا ، عليه رمز ذلك الأقليم . وعرف المصريون كيف يركبون النيل ، وكانت سفنهم الشراعية تحمل رمز الأقليم أيضاً .

وكثيرا ما كان سكان الأقاليم المتجاورة يتحاربون فيتغلب أقليم على آخر فيضمه إليه . وأسفرت نتيجة تلك الحروب عن

تكوين مملكتين عظيمتين ، إحداهما فى الشمال وكان رمزها حزمة من البردى ، والأخرى فى الجنوب وكان رمزها زهرة الزنبق .

وحوالى سنة ٣٤٠٠ قبل ميلاد المسيح خطرت فكرة هائلة فى رأس الجالس على العرش . زحف ذلك الملك من عاصمته طينة (على مقربة من جرجا الحالية) إلى الشمال ، وما هى إلا مدة قصيرة ، حتى أخضع سكان الشمال ، فلبس التاجين ، ووحد الوجهين ، وأصبح صوته مسموعا من جنادل اسوان إلى مصب النيل . ذلك هو « مينا » رأس أسرات الفراعنة ، ومؤسس أول مملكة أشرقت عليها شمس التاريخ ، فى وقت كان كل سكان الأرض فيه يعيشون هملا لارابطة بينهم .

ولا تسل عما جره ذلك الاتحاد على مصر من خير فقد تقدمت العلوم والفنون فى المملكة الأولى فى العالم وترقت العمارة ، وكثر تشييد المقابر والهياكل ، وانتظمت حركة التجارة والصناعة .

ولم تكن مثل تلك الحكومة ، بما فيها من موظفين وجباة ، تستطيع أن تستغنى عن طريقة تضبط بها ميزانية الدولة ومقادير الضرائب ، فاضطرتهم الحاجة إلى اختراع الكتابة ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

فكان المصريون أول قوم ورثوا العالم تلك النعمة الكبرى ، التى حملها الفينيقيون بعد ذلك بآلاف السنين ، ونقلوها إلى كل الشعوب .

ولمس المصريون بأيديهم منافع الوحدة الوطنية وكان هم خلفاء « مينا » من ملوك الأسرتين الأولى والثانية ، هو تثبيت دعائمها والتمكين لها .

غير أنه يصعب علينا أن نصدق أن ذلك العمل كله قام به ملك واحد ؛ والمعقول أن يكون ذلك ثمرة جهاد ملوك كثيرين . وعندنا أنه لم يكن « مينا » هو الذى قام وحده بتوحيد مصر ووضع أساس عظمتها .

قال المؤرخ هيرودوت : أنه لما تم أمر اتحاد المملكة لمينا أراد هذا الملك الطينى (أى من طينة إحدى بلاد الصعيد) أن يتخذ له عاصمة تكون مركزا لأحكامه فاستحسن الموضع الذى به الآن (ميت رهينة) وحاطه بجسر . وكان النيل يجرى بجانب هضبة ليبيا فحوّله الى مجرى مهده بين الجبلين ، ثم حاط الأرض التى تخلفت من ذلك بالجسور ، وأنشأ فيها مدينة منف ، ثم احتفر حولها فى الجهة البحرية والغربية ، بحيرة يأتيها الماء من النيل الذى يحد المدينة من الجهة الشرقية ، فصارت محصنة يحيط بها الماء من ثلاث جهات .

والظاهر لأحدث المؤرخين أن نسبة كل ذلك لمينا أمر غير مقبول ، بل أن بعضهم يشك الآن فى وجود (مينا) نفسه ويعتقد أن ملكا آخر من ملوك مصر المتحدة الأولى ، أولى منه بالشهرة ؛ ذلك الملك هو (نارمر) الذي أتم تغلب الصعيد على الوجه البحرى واتخذ عاصمته موضع (كفر طرخان) التى تبعد عن القاهرة بخمسة وعشرين ميلا .

ومهما كان من أمر ذلك فأصلهم كله من طينه بالقرب من جرجا ، وكانوا يدفنون فى الموضع المعروف الآن بالعرابة المدفونة .

وبالرغم من توحيد القطرين ، فان النظام الحكومى والأدارى ، كان لايزال قائما على أساس الوحدة الادارية ، أى أن مصر كانت مقسمة إلى عدة مقاطعات ، كان يوجد منها نحو العشرين فى مصر العليا وربما كان هناك مثل هذا العدد فى مصر السفلى ، وكانت كل مقاطعة من هذه المقاطعات ، تكوِّن وحدة إدارية فى حد ذاتها ، وكان هناك على رأس كل مقاطعة حاكم تحت تصرف الملك ، يعينه أو يعزله متى شاء . وكانت علاقة الحاكم بالملك أشبه بعلاقة المدير الحالى فى مصر مع وزارة الداخلية ، ولكن بالرغم من ذلك فان الحاكم كان له فى داخل حدود مقاطعته ، سلطة واسعة النطاق ، فإدارة المقاطعة

ومستودعات الذخيرة ، كانت فعلا تحت إشراف حاكم المقاطعة الذى كان مسئولا أمام الملك . نظام كهذا ، كان من غير شك محتملا ، مادامت الملكية قوية ، غير أنه بمجرد ضعف الملكية كانت السلطة التى يتمتع بهـا سكان الأقاليم أكبر خطر على الوحدة المصرية .

وكان مركز الملك عند توحيد الملكية قد وصل إلى درجة كبيرة من الجاه والنفوذ ، فكان الناس مثلا يقبلون الأرض أمامه فى الحفلات الرسمية . أما أصحاب الحظوة عنده ، فكانوا يمتازون عن غيرهم بتقبيل قدمه ، وكانت حكومته فى أول الأمر تعرف (بالبيت العظيم) أو (الديوان العالى) (Per-o) وأصبحت هذه التسمية تطلق بعد ذلك على شخص الملك نفسه ثم حرفت هذه الكلمة إلى (Phara-oh) وعند العرب فرعون .

كان لملوك مصر صبغة مقدسة ، وكانوا يستحيلون بعد موتهم إلى آلهة أو ملوك ، يحكمون بسلطة استبدادية محضة ، كما يتجلى ذلك فى نقوش اهرامات Unas بسقاره . وكانت المعية الملكية فى مصر فى أول الأمر ، بعد توحيد المملكتين ، غاية فى الأبهة والعظمة ، ويتبين لنا منها بوضوح كيفية نشوء نظام البلاد الملكى بمعناه الحديث ، وكيفية نشوء مركز الوزراء .

كان للملك زوجة رسمية وكان ابنها ولى العهد ، ولكنه كثيرا

ما كان يتخذ زوجات أخريات له منهن أولاد ، وما كان الملك ليظلم أولاده من هاته الزوجات ، بل كان يسبغ عليهم ثروته ويربيهم أحسن تربية ويشركهم فى إدارة الحكم . أما ولى العهد فكان يمتاز بتربيته عن اخوته ، ويشترك فى الأدارة كرئيس للوزارة ، حتى يلم بشئون المملكة قبل توليته الملك .

وعند توحيد المملكة المصرية كان للملك أكبر نفوذ ممكن ، وكان حكام الأقاليم يطيعونه بكل مايأمرهم به ، وقد نقل هيرودوت ، مما كان يجرى على ألسنة القوم عند زيارته لمصر فى القرن الخامس ، « أن بناء الهرم الأكبر تطلب مجهودات مائة ألف من العمال مدة عشرين سنة » وسواء أكان لهذه الرواية نصيب من الصحة أو لم يكن ، فيمكننا أن نستخلص منها أن ملوك الأسرة الرابعة بلغوا من القوة والنفوذ والسلطان مبلغا عظيما .

لم يكن الناس حتى الأسرة الأولى القديمة يعرفون البناء بالحجر حتى جاء (زوسر) من ملوك الأسرة الثالثة فأسس هرم سقارة المدرج ، الذى يعتبر أقدم بناء من الحجر فى العالم .

وكثرت الأهرامات فى عهد الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة . أما الغرض من بنائها فكان حفظ أجساد الموتى ، لأن المصريين القدماء كانوا يؤمنون باليوم

الآخر و بالبعث بعد الموت كما سبق أن بينا . غير أنهم كانوا يعتقدون أن الأجساد اذا فنيت ، عذبت الأرواح وقضى عليها ، فكانوا لذلك يعمدون

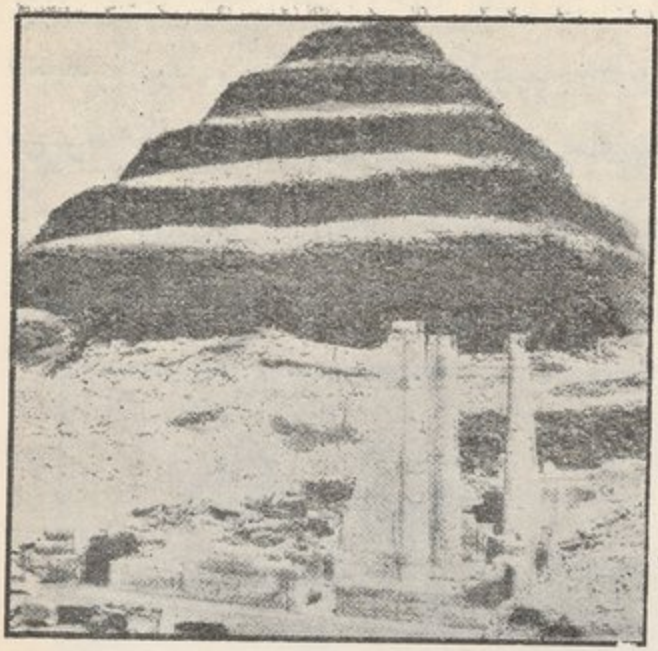

« هرم سقاره المدرج »

إلى تحنيط أجسادهم ، فينقعونها فى ماء النطرون ، ثم يستخرجون الأحشاء والأمعاء ، ويحشون مكانها التوابل والعقاقير المختلفة ، ويصمغون الجلد عدة مرات ، ثم يلفونه بالأربطة ، ويودعون تلك الموميات (الاجساد المحنطة) بطون تلك القبور الهائلة حتى لا تصل اليها يد العبث أو الفناء .

بنى خوفو الهرم الكبير كالطود العظيم ، وأسس باقامته دعائم شهرته ، وادعى هيرودوت أن خوفو أغلق ، المعابد ومنع العبادة ، ثم ندم فى آخر أيامه ، على عسفه وضلاله ، فاستقام فى أحواله وصار تقياً صالحا . وزعم هذا المؤرخ أن الناس

جميعا أبغضوا هذا الملك ، وخلفه الذى بنى الهرم الثانى فنبذوا التلفظ باسمهما . وتغـــالوا فى كرههما ، فأخرجوا جثتيهما من مرقدهما ، وقطعوهما إربا إربا ، ثم دفنوهما فى مخابئ لم يتيسر لأحد العثور عليهما ، هذه هى المزاعم الاغريقية يرددها الناس حتى الآن فلا بد من تمحيصها

« اهـــرام الجيزة وابو الهـــول »

والواقع أن هؤلاء المؤرخين بالغوا كثيراً فى وصف عسف خوفو وخفرع ، فالثابت أنهم لم يسخروا النـاس فى العمـــل إلا وقت الفيضان ، وكان اذ ذاك وقتا يغمر فيه النيل الأرض ، وتتعطل الحياة الزراعية ، إلى أن ينحسر الماء ، وان التسخير كان فى عمـــل فنى عظيم ، اكسب الشعب دراية فنية عظيمة ومهارة فائقة فى اتقان الصنع .

ولم نسمع عن قدماء المصريين ما يدل على قسوة كما سمعنا عن غيرهم من أمم الشرق القديم كالأشوريين

ولم يكن الملك المصرى من السلطة بحيث يفعل مايريد ، فقد كان خاضعاً لقواعد مرعية ، لايحيد عنها إرضاء لحاجة فى نفسه أو تشفيا من مسىء ، ولا ينقض ذلك أن المصريين ألهوا ملوكهم ، فآلهة الوثنية لاتختلف فى فضائلها عن البشر .

ظهرت الاسرة الخامسة إثر الرابعة ، وقد ساس ملوك هذه الأسرة البلاد سياسة لابأس بها ، وشادوا اهراما ، وأصلحوا المعابد ، إلا أن الاهرام التى بنوها أصغر كثيراً من اهرام الاسرة الرابعة ، ولكنها أجمل منها زينة ، وتمتاز المعابد الملحقة باهرام الاسرة الخامسة بعمدها المصنوعة من المحبب ، وبالرسوم الجميلة على جدرانها ، ويتجلى الاتقان الذى بلغه فن الرسم أيام هذه الاسرة فى الرسوم المنقوشة على جدران قبرى (تى) و (بتاح حتب) بسقارة .

وجاءت الاسرة السادسة بعد الاسرة الخامسة ، وفى أيام هذه الأسرة بدأ الضعف يدب فى سلطة الملك . ومما يدل على ذلك أن الأمراء وحكام الأقاليم ، بعد أن كانوا يدفنون بالقرب من الملك ، صاروا يدفنون فى بلادهم . وكانوا يقتتلون فيما بينهم فساد الاضطراب ، واختلت أحوال البلاد ، وانحط الفن المصرى

واغتصب الأمراء وظائف الدولة . واستقل حكام المقاطعات ، وصاروا يتنازعون فيما بينهم وعادت مصر إلى الانقسام الذى انقذها منه (مينا) منذ ألف سنة .

وظل الانقسام تتبعه الفوضى مخيما على مصر أيام الاسرتين السابعة والثامنة . وفى أيام الاسرتين التاسعة والعاشرة ، انحصر النزاع بين مدينتى هرقليوبوليس (مكانها اهناسيه) ومدينة طيبه (مكانها الاقصر) وانتهى هـذا النزاع بسقوط هرقليوبوليس وانتصار طيبه .

الفصل السابع

المملكة المتوسطة أو العصر الاقطاعى

لما انتصر أمراء طيبـــه على (هرقليوبوليس) اخضعوا جميع مقاطعات مصر لهم ، ووحدوا القطر من جديد .

غير أن تلك الوحدة تأسست على نظام جديد ، هو نظام الاقطاع . ويتلخص ذلك النظام فى أن مصر قسمت إلى عدة مقاطعات ، يحكم كل مقاطعة أمير يكاد يكون فرعونا فى مقاطعته ، يملك الأرض وما عليها . وكان الامراء يرثون الحكم عن آبائهم . ولم تكن هنـــاك رابطة تربطهم بالملك إلا دفع قدر من المال لخزينته كل عام ، وامداده بالجنود اذا احتاج إلى ذلك . وكان الامراء بوجه عام يشعرون بواجب الولاء للملك ، غير أنهم كانوا إذا استضعفوا الملك ، يمتنعون عن دفع الضرائب ، ويحاربونه اذا أصر على أخذها . ومن أجل ذلك كان الملوك يقيمون حراسا لحمايتهم ، وكان هـــذا أول عهد لمصر بالجيوش القائمة .

تحت هذا النظام ، خدم ملوك الأسرة الثانية عشرة - أشهر نجوم ذلك العصر الزاهر - مصر خدمات جمة .

جاء (امنحتب الأول) فمـــلأ جو البلاد رغدا وسكينة

وافتخر قائلا : « لاجائع فى مدتى ولا عطشان تحت سلطانى » جد هذا الملك فى إزالة الفساد الذى أوجدته الحروب الداخلية . فأخذ يستميل إليه بعض الأمراء بتوسيع اقطاعاتهم ، ويعاقب المشاغبين منهم ، بانتزاع أرضهم منهم ، ويتفقد البلاد مهتما بمصالح الفلاحين ، فأقام احجارا للحدود ، وبين لكل انسان أرضه وأملاكه ، ووزع عليهم المياه بالعدل ، وأرسل الحملات فأدبت العدو على الحدود ، وخلص الفلاحين من غاراتهم ونهبهم .

كان النظام الاقطاعى فى المملكة المتوسطة قائما على شخصية الملك . وبضعف ملوك الأسرة الثانية عشرة ، قامت الفوضى فى مصر مرة ثانية ، وأعاد التاريخ نفسه . على أن هذا النظام الأقطاعى لم يكن خلوا من كثير من المحاسن ، التى أفادت مصر أثناء وجود ملكية رئيسية قوية ، فتحسنت حالة الطبقات العامة فى المقاطعات تحسنا كبيرا ، بل اعتقد بعض المؤرخين أن العامة وصلوا إلى أحسن حالة فى عصر المملكة المتوسطة منها فى أى وقت آخر من تاريخ مصر القديم ، وذلك لأن حكام الأقاليم نظرا للمنافسة التى بينهم ، أخذوا يتحببون إلى سكان مقاطعاتهم كل فى مقاطعته . وإذا كانت المملكة المتوسطة هى العصر الذهبى فى تاريخ مصر ، فذلك راجع إلى الرغد الذى تمتع فيه العامة فى ذلك الوقت . ولكن لسوء الحظ لم يدم هذا النظام

طويلا ، فعادت الفوضى والانقسامات والحروب الداخلية إلى مثل ما كانت عليه فى نهاية المملكة القديمة ، وزاد الحالة سوءا تغلب عنصر أجنبي على المصريين هذا العنصر ، هو الهكسوس ، وهم قوم بدو رحالة ليس لهم مدنية غزوا مصر صاحبة المدنية الكبيرة وقتئذ ، مما أدخل اليأس والقنوط فى نفوس المصريين .

اعتقد المصريون أن مصر مقدسة تقوم الآلهة دائما بحمايتها ، وأن أبوابها لا تفتح إلا للآلهة دون سواهم وتوصد فى وجه الأعداء . فلما رأى المصريون بأعينهم قوما عديمى المدنية يغيرون على مصر ، ويفتحونها عنوة ، ويقيمون لأنفسهم سيادة فعلية فى الوجه البحرى على الخصوص ، تأثرت عقيدتهم ونفسيتهم ، مما ساعد الهكسوس على أن يمكثوا فى مصر مدة طويلة تعذر على المصريين أثناءها التفكير فى طردهم .

بدأ الهكسوس الأسيويون يغيرون على مصر فى أواخر الأسرة الثالثة عشر المشئومة ، ولسنا نعلم عن الهكسوس أو الملوك الرعاة أكثر من أنهم شعب سامى الأصل شجعتهم انقسامات مصر على الدخول ، فهبطوا الوادى المقدس عن طريق برزخ السويس ، واستطاعوا أن يجتاحوا الوجه البحرى وبعض أقاليم الوجه القبلى بدون عناء كبير ، وساعدهم على التمكن من مصر

بعض الزعانف من أمراء المصريين الذين يعبدون السلطة حيثما ظهرت . وكان حكم هؤلاء الأجانب أشد مايكون بغضا إلى المصريين لا لأنهم عاملوا المصريين بقسوة وفظاظة ، ولا لأنهم حطموا الهياكل والمعابد فحسب . بل لأن عهدهم كان فى مصر أول حكم أجنبى عليها .

غير أن الهكسوس ابتلعتهم المدنية المصرية فلم يلبثوا بعد أن كانوا همجا حتى تحضروا واندمجوا فى المصريين وقلدوا أنماطهم وعبدوا آلهة مصر ، ولكن على الرغم من ذلك لم يغفر لهم المصريون فتحهم لبلادهم ، فكانوا يلقبونهم بالهمج والرعاة والكفرة ، احتقارا لهم وحطا من شأنهم .

وقر الهكسوس فى مصر أيام الأسرات ١٤ و١٥ و١٦ و١٧ زمنا اختلف المؤرخون فى تقديره من قرنين إلى خمسة قرون كانوا يحكمون مباشرة من عاصمتهم أفاريس (فى برزخ السويس) أو بواسطة ولاة من ملوك المصريين يحكمون باسم الهكسوس .

وغير الهكسوس أساليبهم العتيقة فى حكم البلاد . ولكن ذلك لم يغير من قلوب المصريين نحوهم .

وقرب آخر ايامهم ، استطاعت عدة ولايات فى الوجه القبلى أن تنفصل عن الهكسوس . وكانت اهم هذه الولايات طيبه التى

بدأ امراؤها أو ملوكها يشقون عصـــا الطاعة على الهكسوس ويجابهونهم بالعداء ، وما زالوا فى حروب مستمرة معهم ، حتى تم طردهم على يد (أحمس) مؤسس الاسرة ١٨

وأول مانلاحظه على الحضارة أيام الدولة المتوسطة ، اتساع تجارة مصر وعلاقاتها الخارجية فتوغل المصريون فى اواسط السودان وابتاعوا من بلاد النوبه وبلاد بنت (السومال وعدن) ريش النعام وسن الفيل والعطور والطيوب ، ووصفوا رحلاتهم فى قصص طويلة مسلية ، ومن هذه القصص قصة البحرى الغريق ، وقصة سنوحيت ، وفيهما وصف ممتع للاماكن النائية عن بلادهم .

ان امثال هذه الرحلات البرية والبحرية ، التى كانت تتوغل فى الجنوب ، حتى تصل إلى المحيط الهندى ، وتتوغل فى الشمال حتى تدرك بلاد فلسطين وفينيقيا ولبنان وجزائر اليونان واليونان نفسها ، والتى كان يدون اخبارها ويصفها الربابين ومن معهم من الادباء هى اساس الأدب المصرى القديم ، الذى كان يتميز به عصر الاقطاع ، كما يتميز عصر الدولة القديمة بالابنيـــة الضخمة كالاهرام . وقد وضعت فى ذلك العهد جملة صالحة من الاناشيد والاشعار ، كما الفت اول رواية تمثيلية فى العـــالم وهى درامة (اوزوريس) أول إله سكن مصر ، والتى صورت فيها حياته ومماته ودفنه وبعثه ،والتى كانت تمثل كل عام ، فيشترك فى تمثيلها عدد عظيم من

الناس . كذلك تقدم علم الطب والعلاج ولا تزال بعض الادوية والمعالجات التى كان يصنعها الاطباء المصريون قديما لمرضاهم فى تذاكرهم الطبية (الرشتات) كزيت الخروع والحجامة والكى ، تستعمل إلى وقتنا هذا ، وتقدمت فى هذا العهد ايضا العلوم الرياضية والفلكية فألفت كتب فى الحساب على النظام العشرى الذى لا يزال مستعملا الى الآن كما وضعت مبـــادىء الهندسة والجبر واخترعت آلات بسيطة لرصد الاجرام السماوية .

وترقت الادارة الحكومية فكان يعمل كل بضع سنين إحصاء دقيق ، يعتمد عليه فى جبـــاية الضرائب ، كما أنشأ (أمنمحعت الثالث) مقياسا للنيل عند حصن سمنه (الشلال الثانى) لينبىء بحالة الفيضان ، لكى تتناسب الضرائب مع مقدار الفيضان . ولقد أقيمت فى هذا العصر السدود والخـــزانات فأخصب خزان بحيرة (موريس) الذى أنشأه (أمنمحعت الثالث) مايقرب من ٢٧ ألف فدان من أقليم الفيوم وحـــده ، فكانت الحكومة منذ ٤٠٠٠ سنة تفكر فيما يشغـــل بال الحكومات فى وقتنا هذا .

وكان لمصر أسطول ضخم ، وصل إلى جزائر اليونان ، واستولى على كريد وغيرها من الجزائر . وكانت السفن المصرية تأتى من بحرايجه ، فتدخل أحد فروع النيل ، ثم تسير إلى أن تصل

إلى قناة (سيزوستريس) وإلى البحر الاحمر وإلى بلاد بنت وإلى المحيط الهندى الذى كان يعتبره المصريون آخر حد للدنيا .

ولم يهمل المصريون الصناعة فى هذا العصر ، فحذقوا صناعة الحلى الدقيقة . ونظرة واحدة إلى قاعة الذهب فى المتحف المصرى تترك الانسان حائرا من جمال مايرى . أما مبانى هذا العصر فكانت تمتاز بالدقة والتناسق وحسن الذوق والرشاقة ، على عكس مبانى الدولة القديمة التى كانت تمتاز بالفخامة والعظمة .

الفصل الثامن

حرب الاستقلال وعصر الامبراطورية

لم يبدأ هذا الحرب أحمس ، بل بدأها ثلاثة هم (سكنن رع الأول) ملك طيبه و(سكنن رع الثانى) و(سكنن رع الثالث) .

وفى عهد هذا الأخير ، كان ملك الهكسوس الذى يحكم من أفاريس ، هو (أبابى) وقامت بين هذا الملك المغتصب ، وبين (سكنن رع) ، حرب لانعلم من تفاصيلها ، سوى أن البطل (سكنن رع) مات فيها . فليسجل له التاريخ مجد الوطن .

والناظر إلى مومياء سكنن رع الثالث فى متحف القاهرة ، يرى آثار الجروح الفظيعة ، التى أصابت رأس ذلك الملك الشجاع المقدام ، فإن جبهته قد شجت بضربة بلطة ، ولا يزال الشعر ملبدا بالدم حول الشج وأصابت بلطة أخرى الجمجمة فوق العين فبرز بسببها المخ ، وترى فى الخد وخزة من سن سيف ، وترى الألم باديا على وجه المومياء ، وقد ضغط الملك بأسنانه على لسانه حتى خرقه .

ونجح (كاموز) بن (سكنن رع) فى طرد الهكسوس من الوجه القبلى حتى مدينة منف ، تاركا لأخيه (أحمس) مهمة

إجلاء الهكسوس عن مصر تماماً .

لقد كانت مهمة (أحمس) من أشق المهام . فقد كان فرضا عليه ، أن يطوى الأمراء تحت جناحيه . وقد رأى من حسن السياسة ، أن يضمن الحالة فى الجنوب ، خيرا من حرب تستبقيه أعواما طوالا فى الشمال ، فتزوج من ابنة ملك (اتيوبا) ، الذى أمده بجيش من جنوده الاشداد . ولم يكد (أحمس) يبدأ بالزحف إلى الشمال حتى كانت جماهير المتطوعين من المصريين تتدفق إلى جيشه لتخلص البلاد من الأعداء .

استمرت هذه الحرب نحوا من خمسين سنة ، وختمت باستيلاء الأمير أحمس على منف ، وإخراج الهكسوس من مصر . وجلا مع الهكسوس الاسيويون المقيمون فى مصر تحت ظلهم ، وبعض المؤرخين يظن أن ذلك الجلاء أساس القصة الموجودة فى الكتب المقدسة ، عن إقامة بنى إسرائيل فى مصر وخروجهم منها مع موسى . وبعضهم يظن أن خروج الأسرائيليين أمر آخر ، لاعلاقة له بجلاء الهكسوس ، وأنه حدث فى عهد منفتاح ابن رمسيس الثانى .

وقد دخل تاريخ مصر بعد استقلالها ، فى دور فتح عظيم ، وذلك أن حرب الاستقلال ، بعثت فى المصريين روحا حربية ، طوحت بهم وبملوكهم فى الفتح ، طلبا لزيادة التشفى من أعدائهم ،

بعد أن تعلموا منهم فنون الحرب ، وأخذوا عنهم استعمال الخيل والعجلات فى القتال ، فتعقبوهم إلى مواطنهم الأولى فى آسيا .

وأمعن المصريون فى الفتح ، لما وجدوا الحالة فى آسيا مما يسهل عليهم تشييد ملك عظيم .

وذلك أن نفوذ الهكسوس الممتد من مصر إلى غربى الفرات ، تقلص بعد هزيمتهم فى مصر ، وكانت بابل إذ ذاك تحت حكم أسرة أجنبية ، ولم تكن قد قامت بعد دولة الحيثيين التى ستصبح أكبر أعداء مصر . فسهل على خلفاء أحمس التغلب على فلسطين وسوريا . وبذا كان أحمس واضع الحجر الأول فى بناء الامبراطورية المصرية الشامخ ، الذى أتمه أخلافه ملوك الأسرة ١٨ .

ولقد توغل المصريون فى الفتوحات ، بعد إنشاء الامبرطورية ، فزادت ثروة مصر ، واستفاد منها المصريون ، وخصوصاً طبقة الأشراف ، وحكام الأقاليم ، الذين وجدوا من مصلحتهم الانصراف عن مشاغبة الملك ، وأن يلتفوا حوله حتى يكون له نصيب من الثروة العائدة على مصر من الفتوحات الخارجية . فارتفع بذلك شأن الملكية المصرية فى مصر ، حتى أن الملك أصبح له نفوذ فعلى فى جميع الشؤون على جميع المقاطعات . وليس أدل على المركز الذى وصلت إليه الملكية ، من نداء الملك

(تحتمس الأول) ، ثالث ملوك الأسرة ١٨ يخاطب رعيته « هذا مرسومى إليكم ينبئكم بأن جلالتى تبوأت عرش هورس الحى وإنه لامماثل لى إلى الأبد . أنا صاحب الجلالة ملك الأرضين ، أنا الملك الأعظم ملك مصر العليا والسفلى ، قوموا إذاً بتقديم القربان إلى الآلهة ، ورتلوا الأناشيد إليها كى تباركوا الملك وخذوا أيمانكم من الآن باسم جلالتى » .

وبلغ من عظم شأن الملوك أن جميع عمال الحكومة ، مهما كانت درجتهم ، سواء أكانوا حكام مقاطعات أم عمالا فى الحكومة الرئيسية فى العاصمة ، كانوا جميعاً مسؤولين شخصياً أمام الملك ، وكان الملك مشتركا اشتراكا فعليا فى إدارة شؤون المملكة ، يساعده فى ذلك وزيره الأكبر ، بصفته رئيس عمال المملكة المصرية . ولكن نظرا لتراكم الأعمال ، ونظرا لأن طيبة لم تكن فى مركز متوسط فى القطر المصرى ، نرى (تحتمس الثالث) يقسم رئاسة الوزارة بين رجلين ، أحدهما يستبقى معه فى العاصمة ليستشيره فى مهام الأمور ، والآخر وضعه فى (ممفيس) ليقوم بالاشراف على الجزء الشمالى من المملكة المصرية . وسرعان ما استحالت المملكة المصرية فى ذلك الوقت ، إلى امبراطورية عظيمة تمتد شمالا فى فلسطين والشام ولبنان ، وشرقا إلى الفرات ، وجنوبا إلى النوبة ، وكانت هذه الأملاك خاضعة لسلطان الملك

وسيادته ، حيث كان له سلطان وسيادة فى مصر ، وفى الأملاك المصرية أيضاً .

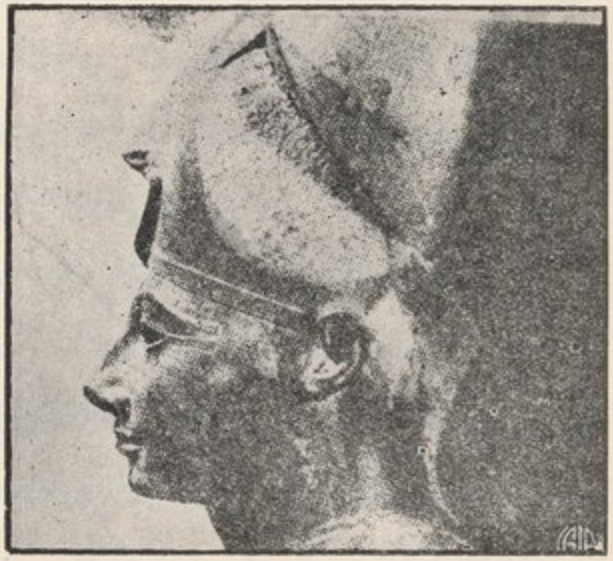

تمثال الامبراطور الاعظم (تحتمس الثالث) الذى لقبه المؤرخ الامريكى بريستد بنابليون مصر

ولما تولى تحتمس الثالث الحكم فى مصر دوخ مملك (قادش) واحلافه فى معركة (مجدو) وأخذ يروح ويغدو إلى آسيا سبع عشرة مرة وقعت فيها آسيا تحت قدميه ، وتزلف إليه ملوك آشور وبابل والحيثيين والميثانى ، فقدموا له الخضوع وحملوا إليه الجزية ، فوفروا عليه مشقة الحرب ، واجتاح اسطوله سواحل فينيقيا وآسيا الصغرى وقبرص وكريد ورودس وغيرها من جزائر البحر الابيض المتوسط ، وإذا بالامبراطور الأعظم وهو فى السبعين من عمره لا يعرف الراحة ، فيقود حملة إلى بلاد النوبة ، ويتوغل بها فى مجاهل السودان . والمراسلون الحربيون فى كل حروبه ، كما تفعل

أرقى الجيوش الآن ، يدونون يوما بيوم وبالتفصيل حوادث الحرب والفتح .

كذلك كونت أول امبراطورية فى الأرض .

ولقد كان تأسيس هذه الامبراطورية خلقا جديدا لمصر ، إذ تغيرت الحالة من جميع النواحى ، وأصبحت الدولة حربية بكل معانى الكلمة ، وصارت الجندية هى الطريق الوحيد لكسب المال والشرف حتى أحقر حقير . حتى العبد ، كان يأمل بانضمامه إلى الجيش فى الوصول إلى أعلى مناصب الدولة .

وكان فى مصر طوال عهد الامبراطورية ، ثلاث أحزاب قوية : حزب الكهنة والحزب العسكرى وحزب المحافظين (أو حزب الوراثة الشرعية) وكانت هذه الأحزاب تدفع مرشحيها لا إلى البرلمان ، ولكن إلى العرش . فحزب المحافظين كان يرى ضرورة أن يرث الابن الشرعى أباه فى العرش ، وكان هذا الحزب يعضد وراثة (حتشبسوت) لأبيها فى العرش ، بينما كان يعضد حزب الجيش (تحتمس الثانى) وحزب الكهنة (تحتمس الثالث) لأنه قضى حياته الأولى فى المعبد .

والملكة (حتشبسوت) ، أقوى ملكات مصر ، كسبت بحذقها ونفوذ حزب المحافظين المصريين (حزب الوراثة الشرعية) كيان أخويها (تحتمس الثانى) والثالث . فتزيت بزى الرجال

وخوطبت بلقب (صاحب الجلالة) ، وبعثت بحملات إلى بلاد (بنت) وعادت سفنها محملة بالتوابل والعطور والنسانيس والزراف وريش النعام فدونت أخبارها على معبدها فى الدير البحرى .

وكانت طريقة الحكم فى عهد الامبراطورية تشبه الطرق المستعملة فى عصرنا هذا ، فكانت البلاد المجاورة لمصر كفلسطين تخضع للحكومة المركزية . أما فى بلاد سوريا وقبرص وكريد ، فكان الأفراد الوطنيون يحكمون بلادهم ، وكان الامبراطور يعين مع كل ملك موظفاً سامياً مصريا ، له الأمر والكلمة العليا ، وعلى الأمراء الطاعة والتنفيذ ، وكان هؤلاء الموظفون المصريون يشرفون على جباية الضرائب ، تعضدهم حامية مصرية ، وكان أبناء الأمراء يبعثون إلى مصر ليكونوا رهائن على سلوك آبائهم ، وليتعلموا على النظم المصرية ، حتى اذا ما آل اليهم الملك خدموا الامبراطورية خدمة صادقة ، أما البلاد البعيدة فكانت تبعث إلى مصر هدايا بانتظام ربما فاقت جزية المستعمرات الاخرى .

وكانت (طيبة) المدينة الخالدة ، مركز ذلك الملك الشاسع ، وكان النيل يفصلها إلى قسمين : طيبة الغربية وطيبة الشرقية . فأما الأولى فكانت تسمى مدينة الأموات ، يكتنفها من الغرب واديان عظيمان ، هما وادبا الملوك والملكات ، اللذان نحت ملوك وملكات الامبراطورية قبورهم فيهما على شكل سراديب تنحدر

فى باطن الجبل عشرات الأمتار وتنتهى بردهات وحجر يوضع فى أقصاها وأبعدها غورا تابوت الملك . وبين (بيبان) الملوك والملكات ونهر النيل ، تقع عدة معابد جنائزية ، كان الغرض من بنائها أن يصلى فيها على أرواح الموتى ، وأن تقدم القرابين للآلهة ، لكى يسهل على الفراعنة اجتياز العالم السفلى ، حتى يصلوا الى ملكوت (اوزيريس) حيث يزن الاله (انوبيس) أعمالهم فى الميزان ويقيد الإله (توت) نتيجة الميزان ثم يقدم الإله (حوريس) من ثقلت موازينه إلى حظيرة (أوزوريس) كبير الآلهة ليدخله جنة الآخرة ، وأما من خفت موازينه فتتلقفه آلهة كالوحوش الكاسرة . تلك هى (طيبه الغربية) مدينة الأموات .

أما (طيبة الشرقية) فكانت مدينة الأحياء ، وكانت عامرة بقصور الملوك والأمراء ، وغاصة بمساكن الطيبيين ومعابد الآلهة وبخاصة (آمون) إله طيبه وزوجته الإله (موت) وإبنهما الإله (خنسو) .

ولنرجع القهقرى بالخيال ، إلى عصر (أمنوفيس الثالث) (الأسرة ١٨) لنرى (طيبة) فى أزهى عصورها .

كان قصر فرعون على ضفة النيل ، تحيط به الأشجار الجميلة وتحفه المهابة والوقار ، ويملأ ساحته الحرس الأشداء . وكانت

قصور الأمراء والوزراء تكتنفها الحدائق الغنـــاء، وتسبح فى بحيراتها الصناعية خفاف القوارب والأسماك، وكان معبد الاقصر قد صفحت أراضيه بألواح الفضة وزخرفت نقوش جدرانه بالذهب واكرم الأحجار.

وكان طريق الكباش الرابضة يؤدى إلى معابد الكرنك، حيث البحيرة المقدسة، وحيث يضل السائر فى ساحاتها الشاسعة بين آجام الأعمدة الزاهية وشوامخ المسلات. ورهط الريفيات يردن المدينة: تلك تحمل على رأسها جرة فيها نبيذ، وهذه تتأبط حزمة من غزل الكتان، وتلك تسوق قطيعا من الغنم، وهذه تبحث عن حانوت الكحال، وتلك ترتاد ناحية النجاد. وبينما المدينة فى حركة، اذا فجأة يهرول جماعة من جند القصر الملكى من ناحية المعبد، يهتفون بالناس أن أفسحوا الطريق، ثم تمر أميرة من بنات فرعون، يحملها عبيدها السود، على محفة غاية فى الرواء، فيحييها الناس برفع أيديهم وبالانحناء.

وفى إحدى ميادين العاصمة ترى قبيـــلا من رجال ونساء وأطفال، يلبسون ثيابا مختلفة، ويتكلمون لغات مختلفة، وقد وقف فى وسطهم فيال، تقفز على ظهر فيله الضخم القردة والنسانيس فيتفكه بمرآها الناس.

ثم ترى حشدا من الناس يزدحمون بالمناكب عند أرصفة

تمثال لاميرة من أميرات القصر الملكى

(طيبة) ليروا السفن الآتية من الجنوب والشمال ، تحمل الجزية لفرعون وأسرى المستعمرات ، فيسر الناس لرؤية الغنى يتدفق إلى بلادهم ، والأسرى مكبلين بالأغلال والاصفاد ، يساقون إلى الخدمة فى الحقول واقامة المعابد (لآمون رع) مصدر الخيرات . وترى الرسامين يصورون أولئك الأسرى التعساء صوراً كاريكاتورية على قطع من الخشب (كالكارت بوستال) يبتاعها الناس ويتفكهون بالضحك عليها .

ذلك كان مرأى الحياة فى طيبه ، منذ ثلاثمائة وثلاثة آلاف عام عند ما كان الامبراطور امنوفيس الثالث أعظم رجل فى العالم .

ولما جاء (امنوفيس الرابع) ابن (امنوفيس الثالث) قام برجة هائلة ، زلزلت عقائد الناس ، وهزت دعائم الامبراطورية المتينة ، كما فصلنا فى باب الديانة عند قدماء المصريين .

ولقد كان (اخناتون) حقا أول فيلسوف فى العالم دعا إلى الحق والهدى ، وكانت صيحته أول صيحة بالوحدانية ، فى وقت كانت الوثنية فيه فى حصنها الحصين . ولكن العالم إذ ذاك لم يكن مستعداً لاجابة مثل هذه الدعوة ، وجاء نبى الفراعنة قبل أوانه بعشرات القرون .

وأدرك أعداء مصر أن فرعون قد انقلب قديسا نبيا

فأغاروا على أملاك الأمبراطورية فى الشمال ، ويسجل التاريخ اخلاص الموظفين المصريين فى هذه الناحية ، فقد بحت أصواتهم من طلب النجدة ، وترقب الأوامر من (طيبة) ولكن (اخناتون) لم يكترث لعرض الدنيا ، وركز جهوده وعبقريته لخدمة دينه الجديد ، وبلغ السيل الزبا ، فامتنعت المستعمرات عن دفع الجزية ولكن اخناتون لم يتحرك .

وأخـــيراً مات اخناتون تاركا وراءه طفـــلا ضعيفا لامبراطورية ، كانت بالأمس عظيمة ، وخزانة خاوية ، ولخلفه من بعده ، كهنـــة ثائرين يرغبون فى الانتقام ، وجيشاً غاضباً وشعباً حانقا .

ولم ينجب (اخناتون) ذكورا فتولى من بعده (سكارع) زوج ابنته ، ولم يكن حكمه مهماً ثم تلاه (توت عنخ آمون) زوج ابنته الأخرى ، فكان فى مبدأ حكمه مخلصـــا لآتون ثم لم يلبث أن طواه الكهنة ، فاذا به يبرح مع بلاطه (اخيتاتون) ثم يعود إلى (طيبة) ، فيصدر أمرا باعادة عبادة (آمون) ، ثم يغير اسمه من (توت عنخ آتون) إلى (توت عنخ آمون) ويأخذ فى اصلاح معابد (آمون) التى خربها حموه ثم يملؤها بتماثيل الآلهة الذهبية ، ثم يبالغ فى مرضاة كهنة آمون ، فيجزل لهم العطايا ويعيد النظام القديم بحذافيره .

وهكذا يتم فشل أخناتون وبفكرة فلسفية سامية تضيع أولى أمبراطوريات العالم .

ثم تسقط الأسرة الثامنة عشرة بعد وفاة (توت عنخ آمون) بقليل ويؤسس (حر محاب) الأسرة التاسعة عشرة ، وإذا (بسيتى الأول) يحاول أن يسترد امبراطورية (تحتمس الثالث) فلا ينجح إلا فى استرداد فلسطين لأن الحيثيين من سكان آسيا الصغرى ، الذين بدأوا الغارة على المستعمرات المصرية أيام الفيلسوف (أخناتون) كانت قد رسخت قدمهم فى سوريا .

ولما أتى دور (رمسيس الثانى) ، أشهر فراعنة مصر ، حاول أن يسترد من جديد امبراطورية (تحتمس الثالث) فأصاب القصد ، ولكن أخطأه التوفيق ورضى ، بعد حروب عدة وبعد انتصاره على الحيثيين وحلفائهم فى معركة (قادش) التى أظهر فيها شجاعة نادرة خلدت أسمه فى سجل الشجعان فى العالم أن يقنع من انتصاراته العديدة ، بمعاهدة هجومية دفاعية ، بينه وبين ملك الحيثيين ، يلقب فيها بملك مصر الأكبر ، بينما حليفه (ختاسار) يلقب بأمير الحيثيين ، ولكن المعاهدة لاترد لمصر إلا فلسطين ، ثم يتزوج (رمسيس) من ابنة ملك الحيثيين ولا تروى الحروب غلته فيطفىء غروره بإقامة التماثيل والمعابد ينقش على جدرانها قصائد شاعره (بنتاءور) فى تمجيده

ووصف معركة (قادش) أهم معارك (رمسيس) . ويستبطىء النحاتين والمثالين فى صنع تماثيله الهائلة العديدة فيضحون الفن فى سبيل الكثرة ولا يكتفى بهذا ، فيمحون أسماء أسلافه من على تماثيلهم ومعابدهم ويضعون عليها اسم (رمسيس) .

ومات رمسيس ، وقد نيف عمره على قرن ، تاركا وراءه عدة زوجات و ١١١ ولدا و ٥١ بنتا لابنه العجوز (منفتاح) .

وثارت فلسطين فى عهد (منفتاح) فأخضعها ، وعاد ليخضع من أغاروا على الدلتا من اللوبيين وسكان جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وربما كان (منفتاح) هذا هو فرعون موسى الذى خرج فى عهده بنو اسرائيل من مصر .

وعاد اللوبيون إلى الاغارة على مصر مرة ثانية ، فهزمهم (رمسيس الثالث) من الأسرة العشرين .

وقوى نفوذ الكهنة فاتخذوا من الرماسسة بقيـــة ملوك الأسرة العشرين ألاعيب يفعلون مايؤمرون .

وقفز (حرحور) رئيس الكهنة إلى عرش مصر فكون أسرة من الكهنة هى الأسرة الحادية والعشرون فقدت مصر فى عهدها طورسينا وفلسطين .

وشاء القدر الساخر أن يجلس على عرش مصر (شيشنق) الأول ملك اللوبيين ، فيتخذ من مدينة بوسطة (تل بسطة عند

الزقازيق) عاصمة للأسرة الثانية والعشرين .

وتتحرك دماء الفراعنة فى (بعنخى) فيخرج من بلاد النوبة المنحصرة منذ مئات السنين فيستولى على (منف) ، ويكون كهنة آمون الأثرياء بسلطانه ، الأسرة الثالثة والعشرون .

واستقل بالوجه البحرى أمير سايس (صاالحجر) الملك (بخوريس) فأسس الأسرة الرابعة والعشرين ، بينما ظل الوجه القبلى تحت حكم النوبيين المصريين . وتطلعت من أقصى الشرق عيون الأشوريين إلى مصر ، فاتهموا المصريين بمساعدة أهل الشام الثائرين ، فاستولى على الدلتا (آسرحدون) ملك الأشوريين وأسس الأسرة الخامسة والعشرين ، واستجمع الملك (طهراقه) فى الجنوب قوته وطرد الأشوريين ، فعادوا بعد حين ، ودمر ملكهم (اشور بانيبال) طيبة الخالدة ، مدينة آمون .

وظلت الحرب سجالا ، بين النوبيين والاشوريين ، كل يريد الاحتفاظ بمصر ، فاغتنم الفرصة أمراء الدلتا المصريون ، وقاموا بمساعدة المرتزقة من جنود الاغريق ، فطردوا هؤلاء إلى الشمال ، واولئك إلى الجنوب ، واستقلوا بمصر مكونين الأسرة السادسة والعشرين .

وأعاد فراعنة هذه الأسرة العظام (ابسماتيك) و (نيخاو) و (أبريس) إلى مصر استقلالها المسلوب وزهاء مجدها القديم :

فجمع (ابسماتيك) للدفاع عن استقلال البلاد ، جيشا من مرتزقة الاغريق ، الذين اعتمد عليهم وشجعهم على الاستيطان فى البلاد ، وعمل على تنمية الزراعة والصناعة . وقد بدأت مصر أيامه تحيا بعض الشىء ، ويسمى المؤرخون ذلك الدور من تاريخها ، بعصر النهضة المصرية .

ولم تكن تلك النهضة إلا محاكاة المصريين لحضارتهم السابقة ، وتقليدهم الفنون والآداب الأولى ، والمبالغة فى ذلك حتى أعادوا كل شىء كما كان عليه ، ولم ينسوا أتفه الأشياء . ويجب أن لايغرب عن البال أن مصر بذلك لم تستعد شبابها الأول ، بل كانت كالرجل الهرم ، يقلد الشاب فى هيئته ، ويخفى أثر الكبر فيه بالدهان .

وقوى (نيخاو) الجيش والأسطول ، ففتح بهما فلسطين وسوريا ، وتوغل فى العراق ، ثم وصل البحرين الأبيض بالأحمر عن طريق النيل ، وبعث أول بعثة استكشافية فى العالم ، فطافت حول افريقية ، وتمت رحلتها فى ثلاث سنين .

وفتح (أبريس) سواحل فينيقيا باسطوله الضخم ، وملأ صفحة مصر بمعابد ضخمة كمعابد العهد القديم . واشتد ميله إلى الأجانب ، وبخاصة الاغريق ، فثار عليه المصريون ، وولوا مكانه قائد جنده .

« بهو الاعمدة فى معبد آمون الكبير بالكرنك »

وتبع (أحمس الثانى) سياسة (أُبريس) حتى أنه أقطع الاغريق أرضا غرب الدلتا ، أسسوا عليها مدينة (نقراطيس) .

ثم رأى (أحمس الثانى) من وراء الأفق بزوغ نجم الفرس فاتحد مع البابليين ، ليقيم منهم سدا يحمى استقلال مصر ، خانه التقدير فاكتسح الفرس البلاد فى عهد خلفه ، ودخل مصر ، الطاغية (قمبيز) محطما مخربا ، وكون لاخلافه الأسرة السابعة والعشرين .

وثار المصريون على الفرس عدة مرات ، فغَلَبُوا وَغُلِبُوا ، وسجل التاريخ ، اسم الأمير المصرى (أناروس) الذى ثار بمساعدة الاغريق على الحكم الفارسى ، فانتصر أولا ثم صلب

أخيراً ، واسم الأمير المصرى (أمرتوس) الذى جدد الثورة واستطاع أن يعلن استقلال البلاد ، فزارها المؤرخ اليونانى (هيرودوت) فى ذلك العهد المستقل وكتب تاريخها المجيد .

وعاد الفرس فهزموا المصريين ، ثم قامت حماسة الشعب تحت قيادة (أمرتوس) آخر ، فطرد الفرس وأسس الأسرة الثامنة والعشرين . وتمتعت مصر بعهد استقلال فى ظل هذه الأسرة والأسرة التى تلتها ، وهى الأسرة التاسعة والعشرون ، وحسن حالها ، واستعادت شيئاً من رخائها . فاذا كانت أيام الأسرة الثلاثين ، عاد الفرس مرة أخرى ، لفتح مصر ، فاستبسل المصريون فى الدفاع عن وطنهم ، فهزموا الفرس ، وردوهم على أعقابهم خاسرين .

وملأ ملوك الأسرة الثلاثين جو البلاد خيرا ورغدا ، وترقت الصناعات ، وتقدمت العلوم ، ولكن هذا الرخاء لم يدم طويلا ، إذ عاد الفرس وهجموا على البلاد فى عهد الملك (نقطنبو الثانى) آخر ملوك الأسرة الثلاثين ، فقابلهم بجيش من المرتزقة الاغريق الذين خافوا ومكنوا الفرس من المصريين ، وقاسى المصريون الآلام ، بسبب الاعتماد على غيرهم ، فى الدفاع عن استقلالهم ، وحصدوا ثمرة هذا الاهمال المشين . وقر الفرس بمصر زمنا عابثين ظالمين ، حتى صرعهم (الاسكندر المقدونى) فطردهم من مصر .

الفصل التاسع

الحالة الاجتماعية عند قدماء المصريين

كانت الاسرة عند قدماء المصريين كما هى الحال إلى الآن ، فى جميع الأرياف المصرية ، هى النواة الاجتماعية . وكانت مرتبطة وحافظة لكيانها ، فكان الرجل وزوجه وأولاده كل واحد منهم مختص بوظائف يقوم بها لسد حاجيات الأسرة . وبالرغم من أن بعض قدماء المصريين كانوا يتزوجون بأكثر من زوجة واحدة ، إلا أن أغلبية الشعب كانت تقتصر على زوجة واحدة ، وكانت حالة البلد الاقتصادية نفسها تحول دون تعدد الزوجات ، بين الطبقات الفقيرة . وبالرغم من أن الطلاق كان محللا عندهم ، إلا أنه كان أمرا مبغوضا فى نظر المصريين القدماء ، حتى أن حكماءهم كانوا يعظون المصريين ، بأن لا يطلقوا نساءهم ، ويتضح ذلك من هذه العبارة « إن من أحب امرأة وأحبته وهى عذراء ، ثم تركها بعد أن تزوجها فإن ذلك يكون عملا أثيما أمام الله وأمام الناس » . كل ذلك كان من شأنه تدعيم بناء الأسرة ، والعمل على المحافظة عليها . وتتجلى هذه

النزعة ، فى كثير من تعاليم قدماء المصريين ، التى حضت على أن يحترم الأولاد آباءهم وأمهاتهم ، حتى أنه كثيرا ما كان احترام الآباء والأمهات يتخذ وسيلة للتقرب إلى الله . وكثيرا ما عثر على هذه العبارة منقوشة على مقابرهم ، « كنت بارا بوالدى ، يحبنى أبى ، وتحبنى أمى ، ويحبنى أخواتى » كذلك كانت التعاليم المصرية تحتم على الرجل ، أن يحترم المرأة ، ويحترم زوجه ويخلص لها ، وإليك وعظ واعظ مصرى قديم حيث يقول : « إن الله أعطاك أما حملتك مع ضعفها ، ثم وضعتك وأرضعتك ثلاث سنين ، وربتك واعتنت بأمرك ، والآن وقد بلغت سن الرجولة ، وتزوجت وأنشأت لك بيتا ، فيجب عليك أن تلتفت إلى ابنك بكل ماوهبت من قوة ، وأن تعتنى به ، كما اعتنت بك أمك من قبل ، وإياك وغضب الأم ، فإنها إن تضرعت إلى الله وشكتك إليه ، فان الله سيسمع لها ويعاقبك » .

وكان للمرأة عند قدماء المصريين مركز لايستهان به ، فكانت تشترك فى الحياة العملية من الوجهتين الاجتماعية والاقتصادية ، وخصوصا بين الطبقات الفقيرة ، وفى المتحف المصرى بالقاهرة ، يرى الزائر من التماثيل ما يبين له النساء ، يشتركن فى الأعمال الجدية مع الرجال ، ويقمن بوظائفهن فى مجارى الأعمال الاقتصادية ، وفى هذا المتحف تماثيل

تستعرض الملك ، وهو جالس على العرش وبجانبه الملكة ، وقد وضعت ذراعها حوله بكل شفقة ومحبة ، مما يدل أيضا على أن الطبقات الراقية من النساء ، وعلى رأسها الملكة ، كثيرا ما كن يشتركن فى الحياة العامة . وبلغ من مركز المرأة عند قدماء المصريين ، أن مصر حكمها فى تاريخها القديم عدة ملكات ، نخص بالذكر منهن الملكة (حتشبسوت) التى بلغ بها الحد أنها كانت فى الحفلات والأعمال الرسمية ، تتزيى بزى الرجال ، وحدث فى تاريخ مصر فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد ، أن المرأة كثيرا ما كانت تتولى أهم الوظائف الدينية ، حتى أن بعضهن وصلن إلى أن أصبحن رئيسات لكهنة الإله (آمون) فى (طيبة) .

قلنا أن التعاليم المصرية كانت تحث على أن يعامل الرجل زوجه أحسن معاملة ، مما يؤدى بالطبع إلى تملك أجزاء الأسرة فى الحياة المصرية . من ذلك كلام الحكيم (فتاح حتب) الذي كان حاكما لمنفيس حوالى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، والذى كان من أحسن الكتاب والأدباء عند قدماء المصريين ، والذى استدعاه الملك فى ذلك الوقت ليقوم بتربية ولى عهد المملكة ، والذى وضع من أجل ذلك مجموعة كبيرة من الحكم ، أصبحت مستوى للأخلاق عند قدماء المصريين ، وكان الأولاد فى المدارس

يتعلمون هذه الحكم حتى فى عصر الامبراطورية ، ويكتبونها على ألواح أشبه شيء بالاردواز ، ثم يمسحونها ليجددوا غيرها . من هذه الحكم ما يختص بمركز المرأة ، ومعاملة الزوج لزوجته حيث يقول «كن سيدا فى منزلك ، وأحب امرأتك حبا خالصا ، أعطها كفايتها من الطعام واللبـــاس ، واشترى لها العطر والكماليات ، واجعلها سعيدة مادمت حيا ، فإن المرأة مرآة لزوجها ، ينعكس فيها مايبذله فى سبيل سعادتها ، ولا تكن خشنا فى بيتك فاللين يحرك قلب المرأة ، والغلظة تستفزها ، أعط امرأتك كل ما تريد إن كان لك إلى ذلك سبيل ، وأرضها تعش سعيدا ، وإلا كان مصيرك الخراب ، قربها وسمها أسماء معززة ، وتحملها واحترمها واظهر لها ميالك وحنانك دائما» .

وكان هناك عدة طبقات اجتماعية فى مصر ، وبالرغم من أن هذه الطبقات ظلت مدة كبيرة ، وهى محافظة على كيانها دون أن يحصل اندماج كبير بين طبقة وأخـــرى ، إلا أنه لما قامت الامبراطورية فى مصر وقامت ظروف استثنائية ، أدى ذلك إلى تغيير مركز الطبقات الاجتماعية . وكان هناك :

طبقة الأشراف : وكانت تشمـــل أفراد الأسرة المالكة وأفراد الأقاليم ، وكانت لهم ثروة عظيمة . فكانوا يعيشون فى سعة ونعيم ، خصوصا فى أيام ضعف الملكية حيث كانوا

يستأثرون بالسلطة والثروة .

وطبقة الأغنياء : الذين هم من الملاك غير الأشراف ، وكان ظهورهم متأخرا . وفى عصر الامبراطورية قام فى مصر طبقة غنيـــة أخرى غير طبقة الملاك ، وهم التجار الذين انضموا إلى طبقة الملاك ، وكونوا فيما بينهم الطبقة الثانية .

والطبقة الوسطى العليا : وكانت فى العصور الأولى ، مكونة من الصناع كصياغ الحلى ، ودباغى الجلود ، والنجارين ، وصناع الخزف . وفى عهد الدولة المتوسطة ، انضم إلى هذه الطبقة عدد آخر من الكتبه والنساخين ، كانوا يشتغلون فى أعمال الحكومة والأدارة ، سواء فى العاصمة أو فى البلاد . لأنه لم يكن هناك طبقة غير هذه ينضمون إليها . ثم فى عصر الامبراطورية التى كانت عصر حرب وفتوح خارجية ، انضم إلى هذه الطبقة عدد صغير من صغار ضباط الجيش .

أما الطبقة الوسطى السفلى : فكانت تشمـــل الصناع ، وأرباب الحرف ، وكانت تتكون فى أول الأمر بمن هم أشبه شىء بموال مرتبطين بالاراضى ، وكانوا يكونون الجزء الأكبر من السلسلة الفقرية للامة ، لأنهم كانوا طبقة المزارعين ، وكانت

هذه الطبقات بحكم العادة وبحكم طبيعة المصرى الجاحدة ، محافظة على كيانها محافظة كبيرة .

وطبقة الكهنة : فى أول الأمر كان رجال الدين من أفراد الشعب : كانوا يقومون بمصالحهم الدنيوية ، ثم يجنحون وقت فراغهم إلى القيام باعمال الكهانة فى المعابد . ولكن فى أواخر المملكة القديمة ، بدأ الكهنة يكونون لأنفسهم طبقة قائمة بنفسها . وفى عصر الامبراطورية تراهم وقد أقاموا لأنفسهم طبقة منفصلة عن الشعب ، بعيدة عنه كل البعد ، فى يد أفرادها ثروة طائلة وسلطة أدبية كبيرة .

الفصل العاشر

الفنون والصناعات عند قدماء المصريين

كان تقدم المصريين فى الفنون والصناعات ، خاضعاً لتقدمهم فى المدنية ، وتعدد حاجياتهم المعيشية . يقولون إن المدنية المصرية مدنية دينية ، وهذا صحيح لدرجة كبيرة ، لأن معظم ما وصل إلينا عن مدنيتهم وفنونهم وصنائعهم ، جاء عن طريق معتقداتهم الدينية ، فمثلا كون الدين له أثر كبير فى حياة المصريين ، جعلهم دائماً يجتهدون فى التقرب إلى الله ، وهذا التقرب كان يمكن الحصول عليه من عدة طرق ، منها بناء المعابد الفخمة أمثال الاقصر والكرنك وادفو ، كل هذه نتيجة لرغبة المصريين فى التقرب الى الله . كذلك اعتقاد المصريين فى الخلود ، وفى البعث بعد الموت ، وفى ضرورة المحافظة على الجسد ، كل ذلك أدى بالمصريين ، إلى الوصول إلى درجة كبيرة من التقدم ، فى فن البناء . أدى بهم إلى بناء مقابر ثابتة ضخمة ، مثل اهرامات الجيزة او سقارة او دهشور ، ومثل المقابر المدهشة المنحوتة فى صخور الجبال ، فى وادى الملوك بطيبة ، كذلك المعتقدات الدينية نفسها

أدت بالمصريين ، إلى تحنيط جثـــة الميت ، ومن ذلك وقفنا على شيء من معلوماتهم فى علم الكيمياء .

النسيج : فى العصور الغابرة ، كان المصريون يصنعون ملابسهم من الجلود ، ولكن رأينا أنه حتى قبيل انبثاق فجـــر التاريخ فى مصر ، كان المصريون قد تعلموا طريقة غزل ونسج الأقمشة . وجعل المصريون يتقدمون منذ ذلك الوقت فى فن النسيج ، حتى اصبحوا يصنعون أقمشـــتهم من الكتان الرقيق ومن التيل الذى وصفه البروفسر (Petrie) أنه كان يضارع أحسن الأقمشة التيلية المصنوعة الآن .

وفى المتحف المصرى ، أقمشة تيلية يخيل للعين بانها من نوع الحرير ، الذى يسمى الآن سكروته ، وكان نساء الفلاحين يقمن بجزء كبير من صناعة الغزل والنسيج فى منازلهن ، ولكن فوق ذلك ، كان هناك معامل حقيقية للغزل والنسيج ، يشتغل فيهـا عدد كبير من العمال المصريين ، وهؤلاءهم الذين كانوا ســـبباً فى ارتقاء النسيج ، وصنع الأقمشة عنـــد المصريين . وكانوا يصبغون هـــذه الأقمشة بأصباغ لايزال بعضها ثابت اللون إلى الآن .

الحلى والمعادن : كانوا يحسنون سباكة المعـادن وتشهد لهم حليهم بالدقة فى الصنع وبحسن الذوق ، فى اختيارهم للاحجار

الثمينة ، التى يستخدمونها فى صنع حليهم . وفى المتحف المصرى ، فى قاعة الحلى ، أشياء مدهشة من المصوغات الفضية والذهبية ، تضارع فى جمـــالها ودقتها أحسن ما يصنع الآن ، فى اكبر معامل أوربا .

فى المملكة القديمة ، لم تبلغ الحلى درجة كبيرة ، خصوصاً وأن الفضة كانت نادرة الاستعمال ، لغلو ثمنها ، ولكن منذ عصر المملكة المتوسطة ، بدأت الحلى المصرية تصل إلى درجة عظيمة ، من الاتقان ودقة الصنع .

دبغ الجلود : من أقدم الفنون عند قدماء المصريين ، تعلموه فى الوقت الذى كانوا يعتمدون فيه على الصيد ، لسد حاجياتهم الاقتصادية ، واتخـاذ جلود ما يصطادونه فى صنع الملابس ، ولما تعلم المصريون الزراعة ، وتركوا الصـــيد كأساس لحياتهم الاقتصادية ، لم يتركوا صناعة الجلود كلية ، بل ظلوا يتقدمون فى فن دبغ الجلود ، حتى وصلوا فى العصور المتأخرة ، إلى درجة كبيرة فى هذا الفن ، وكانوا يصبغون هذه الجلود ، بأصباغ مختلفة ، ويتخذونها فى صنع كثير من لوازم الأثاث ، كمقاعد للكراسى ، أو مخدات أو وسائد . وفى المتحف البريطانى بلندن عدة أشياء ، من صنع قدماء المصريين وبعضها لا يزال محافظا على ألوانه .

الورق : كان المصريون يصنعون الورق من نبات البردى ، الذى كان ينمو فى مستنقعات مصر ، فى ذلك الوقت ، وذلك بأن يشقونه إلى شرائح رفيعة ، ثم يضعونه جنبا لجنب ، حتى تتكون منه طبقة بالمساحة التى يريدونها ، ثم يضعون فوق هذه الطبقة ، طبقة أخرى تجرى شرائحها فى خط معارض للطبقة الأولى ، ثم يلصقون الطبقتين ، بمادة لاصقة ، ومن ذلك يتكون ورق البردى المشهور ، وكان المصريون يكتبون على هذا الورق بأصباغ مختلفة اللون ، أشهرها الأحمر والأسود ، وكانوا يستخلصون هذه الأصباغ من النباتات .

النجارة : كان تقدم المصريين فى النجارة فى عصورهم القديمة ، تقدما مدهشاً ، خصوصا لو تذكرنا قلة الأخشاب الثمينة الموجودة فى مصر .

فى أول الأمر كان بمصر انواع كثيرة من الأخشاب ، لوجود أحراش بها ، ولكن هذه الأحراش بدأت فى الانقراض شيئاً فشيئاً ، وفى العصر التاريخى لم نجد بمصر من الأخشاب سوى شجر السنط والنخيل والجميز ، ولذلك فاننا نرى المصريين فى صناعتهم لآثاثهم الثمينة ، لايكتفون بهذه الأخشاب ، بل يستخدمون أخشابا ثمينة ، كالأبنوس من الجنوب ، وخشب الأرز من لبنان . والأثاث الذى اكتشف فى مقبرة توت عنخ آمون ،

يدل على تقدم المصريين فى فن النجارة .

الزراعة عند قدماء المصريين : كانت العوامل الطبيعية فى مصر ، من أهم الأسباب التي جعلت المصريين من أوائل الشعوب ، احترافا للزراعة . فاعتدال المناخ ، وخصوبة الأرض ، والنيل ، كل هذه دفعت المصريين لترك حياة القنص ، والاشتغال بالزراعة ، ولكن فى أول الأمر ، كانت مصر مملوءة بالأحراش والمستنقعات ، ولذلك فان أول مهمة قام بها المصريون ، هى قطع الأحراش ، وردم المستنقعات ، ولذلك انتشر ميدان الزراعة أمام المصريين ولكن . بالرغم من هذا الاتساع ، فان أراضى مصر الزراعية ، ظلت كما هى الآن ، محدودة بالتلال الغربية والشرقية والصحراوات . وكون الأراضى الزراعية محدودة ، أدى بالمصريين إلى استخراج كل مايمكن استخراجه ، وهذا أدى الى تقدمهم فى فن الزراعة ، حتى سبقوا فيها كثيراً من الأمم الأخرى الزراعية فى العصور القديمة ، ومن جهة أخرى ، فان ارتفاع الأراضى الزراعية ، فى كثير من الجهات عن مستوى ماء النيل ، وخصوصا فى أيام التحاريق ، أدى بالمصريين إلى ابتكار الوسائل ، لرفع الماء من مستوى النيل ، إلى مستوى الأراضى الزراعية ، وهذا أدى بهم إلى اختراع (الشادوف) وغيره . ومن جهة ثالثة انخفاض

ماء النيل أيام التحاريق ، جعل المصريين يحفرون ترعا وخزانات . ومن الغريب أن المصريين بعد أن وصلوا لهذه الدرجة من التقدم ، بدأت طبيعة الجمود تتغلب عليهم ، حتى وقفوا عند هذا الحد ، ولم يتقدموا عنه تقدماً محسوسا إلا فى العصور الحديثة ، وهذا الجمود الذى شمل الزراعة ، شمل أيضاً كثيرا من الحرف المتعلقة بالزراعة ، مثل مستخرجات الألبان والزبدة والجبن والبيض .

البناء : أهم مايستلفت انظارنا من آثار قدماء المصريين ، بل الجزء الأكبر من مخلفاتهم ، هو مقابرهم ومعابدهم ، وهى أشياء مبعثرة بكميات كبيرة فى مصر العليا ، لأنهم كانوا يعتقدون بخلود الروح وبالبعث ، وبضرورة المحافظة على أجسامهم ومعابدهم ، وهذه المقابر تحوى كثيراً من آثارهم . وهذا يعلل معنى العبارة القائلة (مدنية المصريين مدنية دينية) . فضلا عن ذلك ، فان عقيدة المصريين بالخلود وضرورة المحافظة على آثارهم ، أدت بهم إلى بناء مبان ثابتة . تتحمل مرور الأزمنة ، وبينما قصورهم ومبانيهم الدنيوية كانت تبنى بالطوب النى ، نراهم يعتنون كل الاعتناء ببناء مقابر خالدة ، حتى أننا فى عصر الأسرة الثانية ، نرى لأول مرة فى تاريخ الانسان ، غرفة فى مقبرة مبنية من الحجر . فالرغبة فى المحافظة على أجسامهم ،

كانت أهم العوامل التى أدت إلى قوة البناء ، وإلى بناء الاهرامات ، التى انشئت من مصطبة ، إلى عدة مصاطب ، كما هى الحال فى الهرم المدرج ، وإلى اهرامات ملساء كما هى الحال فى اهرامات الجيزه ؛ وبالطبع فن البناء عند قدماء المصريين ؛ كان خاضعا لدرجات تقدمهم فى المدنية العامة ، التى اجتازوها فى العصور المختلفة . وفى العصور الغابرة ، كان الجزء الأكبر من مبانيهم ، مصنوع من البوص يغطيه طبقة من الطين ، ثم بدأ ينتشر استعمال الطوب المجفف فى الشمس ، ولكنهم من الأسرة الثانية ، بدأوا يستعملون الأحجار فى مبانى مقابرهم ، ومن ذلك الوقت انتشر استعمال الحجر فى مقابرهم المختلفة ، سواء أكانت مصاطب أم اهرامات ، أم سراديب ، وفى بناء المعابد المختلفه . وهكذا استمر فن البناء فى تقدم حتى الاسرة الرابعة وأعظم عنوان فى هذا التقدم هو اهرامات الجيزة الهائلة .